العددان التاسع والعاشر

ختام السنة الاولى

المغرب

لسان حال المثقفين المغاربة

ذكرى المتنبى في المملكة المغربية

الجديد

مرآة النهضة الفكرية المغربية

ذو القعدة ـ ذو الحجة 1354

فبراير ـ مارس 1936

المغرب الجديد

مجلة علمية تظهر في الاسبوع الاول من كل شهر عربي وتصدر عشر مرات في السنة.

منبر حر

المغرب الجديد منبر حر لنشر سائر الابحاث العلميـة المهذبة، ويمكن لكافة المثقفين المغاربة ان يعتبروه لسانهم الناطق.

مقالات المساعدين

ينشر قلم التحرير لحضـرات المساعديـن كل المقالات المستوفية للشروط الآتية:

1- ان ترسل اليه مصحوبة بالاسم الحقيقي
2 - ان تكون ملائمة لروح المجلة ومستواها، متفقة مع مبادئها الفكرية الاساسية
3 - ان لا تكون متعلقة بمشاكل السياسة الداخلية مطلقا

قيمة الاشتراك

12 بسيطة او 25 فرنكا عن سنة داخل المملكة المغربية.

7 بسيطات او 14 فرنكا عن نصف سنة داخل المملكة المغربية.

30 فرنكا للاشتراك الخارجي عن سنة كاملة.

المراسلات

ما يخص الادارة يرسل باسم مدير المجلة: محمد العربي بن جلون، وما يخص التحرير يرسل باسم «تحرير المغرب الجديد»

صندوق البريد

صندوق البريد نمرة 145 بتطوان

Apartado nº. 145.-Tetuán.

الاعلانات

المغرب الجديد مستعد لنشر اعلانات علمية وتجارية باثمان مناسبة، طبقا للتعريفة المنشورة في آخر هذا العدد فعلى المواطنين ان يبادروا بارسال اعلاناتهم اليها فورا.

فهرس المغرب الجديد

السنة الاولى

— ا —

عنوان الموضوع	نمرة الصفحة ورقم العدد	اسم الكاتب
الشرق الاسلامي-آسفي وما اليه (كتابان ونقد)	ص. 41 ع. 6	ع. ف. (علال الفاسي)
الاسلام الصحيح (كتاب)	ص. 43 ع. 6	م. ط.
التبصر بالتجارة (كتاب)	ص. 45 ع. 6	ع. س.
الحكومة الحسنية والامتيازات الاجنبية . .	ص. 1 ع. 7	محمد المكي الناصري
الامام ابن خلدون وتاريخ المغرب . . .	ص. 4 ع. 7	محمد الطنجي
» » » » » »	ص. 19 ع. 8	" "
العلاقات العلمية الاسبانية المغربية في القرن الثامن عشر (كتاب)	ص. 11 ع. 7	التحرير
المتنبي في فاس	ص. 16 ع. 7	"
ابو العباس المقري ايضا	ص. 41 ع. 7	عبد الهادي الشرايبي
» » » » »	ص. 42 ع. 8	" " "
المجلة المغربية	ص. 47 ع. 7	التحرير
المشرق والمغرب في العروبة صنوان . .	ص. 1 ع. 10.9	شكيب ارسلان
ابو الطيب المتنبي	ص. 5 ع. 10.9	عبد الخالق الطريس
اثر المتنبي في الادب العربي بالمغرب . .	ص. 18 ع. 10.9	محمد علال الفاسي
الشاعر العربي المتنبي والمغرب الاسلامي . .	ص. 22 ع. 10.9	بحث بلاشير وتعريب محمد الحسن الوزاني
المتنبي شاعر الفردية والانانية	ص. 34 ع. 10.9	محمد المكي الناصري
المتنبي شاعر الدهر (قصيدة)	ص. 51 ع. 10.9	محمد علال الفاسي
آية اللغة الفصحى	ص. 55 ع. 10.9	محمد القرى
المتنبي شاعر الشباب	ص. 57 ع. 10.9	محمد بن اليمني الناصري
المتنبي شاعر هذا العصر	ص. 68 ع. 10.9	عبد الهادي الشرايبي
المتنبي-مذهبه في الحياة-موقفه من القومية العربية	ص. 79 ع. 10.9	محمد بن عباس القباج
اخلاق المتنبي	ص. 88 ع. 10.9	احمد بن المليح
امنية المتنبي التي لم تتحقق	ص. 108 ع. 10.9	عبد الله كنون الحسني
اسباب الخلود في شعر المتنبي	ص. 114 ع. 10-9	محمد الهاشمي الفيلالي
المتنبي كما اتصور عبقريته	ص. 123 ع. 10-9	احمد بن احساين
الاحتفال بالمتنبي بفاس	ص. 128 ع. 10.9	شاهد عيان

— ب —

عنوان الموضوع	نمرة الصفحة ورقم العدد	اسم الكاتب
بحث جديد للثقافة الاسلامية	ص. 16 ع. 3	حي بن يقظان (محمد المكي الناصري)
بريد المغرب الجديد	ص. 22 ع. 3	التحرير
" " "	ص. 46 ع. 4	"
بين الاوراق المنسية	ص. 13 ع. 7	ع. ف. (علال الفاسي)

— ت —

عنوان الموضوع	نمرة الصفحة ورقم العدد	اسم الكاتب
ترتيب العلوم (كتاب)	ص. 25 ع. 2	التحرير
ترف الشباب	ص. 15 ع. 6	علي الجلدي
تاج المتنبي (قصيدة)	ص. 17 ع. 8	محمد بن اليمني الناصر

— ج —

عنوان الموضوع	نمرة الصفحة ورقم العدد	اسم الكاتب
جمعية الطالب المغربية تحتفل بذكرى ابي الطيب	ص. 131 ع. 10.9	مخبر امين

Des projets d'Abduh et de Saad un exemple qui se ... la Renaissance marocaine

De nos institutions populaires : le Conseil des Notables

انتهـــــى

عاصمة المغرب العلمية تحتفل بذكرى المتنبى



تظهر في هذه الصورة بالخصوص مائدة الرياسة وحواليها فريق من ادباء المغرب واعيانه الذين حضروا الاحتفال ويبدو رئيس اللجنة الاستاذ محمد علال الفاسى واقفا مشتغلا بالقاء كلمته على الجماهير المنصتة (انظر وصف الاحتفال ص. 128 من هذا الجزء

ذكرى المتنبي في مسرح السراجين بفاس



في هذه الصورة يبدو جانب آخر من جوانب الحفلة، والناظر فيه يلاحظ ان المسرح كان مكتظا الى اقصى درجة حتى اضطرت لجنة الاحتفال الى استعمال المقاعد الموجودة في الطبقات العليا ولم تتخلص فيها ايضا من شدة الازدحام

تعلق الجماهير المغربية باهداب العروبة



هذه صورة احد جوانب المسرح الذي وقع فيه الاحتفال بالذكرى الالفية للمتنبى والناظر يرى فيها راى العين مبلغ تعلق المغاربة شيبا وشبابا بكل ما يصلهم بالعروبة والشرق ويربطهم بالثقافة العربية الاسلامية

اول داع الى اقامة ذكرى المتنبي في العالم العربي



الاستاذ محمد المكي الناصري

رويس تحرير المغرب الجديد
اقرا مقاله «المتنبي شاعر الفردية والانانية» ص. 34 من هذا الجزء



الاستاذ عبد الخالق الطريس

اقرا مقاله «ابو الطيب المتنبي - الدعوة للاحتفال بذكراه - اصول شعره من اخلاقه - شاعريته» ص. 6 من هذا الجزء



الاستاذ محمد الحسن الوزاني

اقرا تعريبه لبحث المستشرق م. بلاشير «المتنبي والمغرب الاسلامي» ص. 22 من هذا الجزء

رؤيس لجنة الاحتفال بذكرى المتنبى فى فاس



الاستاذ عبد الله كنون

اقرا مقاله «أمنية المتنبي التي لم تتحقق» ص. 108 من هذا الجزء



الاستاذ محمد علال الفاسي

اقرا مقاله «أثر المتنبي في الادب العربي بالمغرب» ص. 18 من هذا الجزء



الاستاذ احمد ابن حـابى

اقرا مقاله «المتنبي كما أتصور عبقريته» ص. 123 من هذا الجزء



الاستاذ محمد بن اليمني الناصري
اقرأ كلمته «المتنبي شاعر الشباب» ص. 57 من هذا الجزء



الاستاذ محمد بن العباس القباج

اقرا مقاله «المتنبي - متنفسه في الحياة موقفه من القومية العربية» ص. ٧١ من هذا الجزء



الاستاذ سعيد حجي

اقرا مقاله «ساعة مع المتنبي» ص. 64 من هذا الجزء



الاستاذ محمد المختار السوسي

اقرا قصيدته «فتحي ذكرى في الشعراء» ص. 52 من هذا الجزء



الاستاذ محمد القرى

اقرا قصيدته «آية اللغة الفصحى»
ص. 55 من هذا الجزء



الاستاذ عبد الهادى الشرايبى

اقرا مقاله «المتنبى شاعر هذا العصر»
ص. 68 من هذا الجزء

نادى

جمعية الطالب المغربية

في قاعات هذا النادى العلمي لجمعية الطالب التى يتراسها حضرة الاستاذ التهامى الوزانى اقيمت بتطوان حفلة تاريخية لذكرى المتنبى الالفية

(اقرا وصف الاحتفال ص. 131 من هذا الجزء)



العددان 9-10 | ثمن النسخة 6 فرنكات | ختام السنة الاولى

☆ المغرب الجديد ☆

مجلة علمية لخدمة الثقافة المغربية

☆ رئيس تحرير المجلة محمد المكي الناصري ☆

ذو القعدة - ذو الحجة 1354 — تطوان المغرب — فبراير - مارس 1936

من ذكرى الى ذكرى

في هذا الجزء يجد قراؤنا قسما وافيا مما كتبه ادباؤنا عن شاعر العربية الكبير ابي الطيب المتنبي بمناسبة ذكراه الالفية، وهو في نظرنا مرآة صادقة لمختلف الاتجاهات الادبية التي تعيش بها بلادنا في العهد الحاضر، ولا نكتم اننا مغتبطون باصداره كل الاغتباط، ونحن لا نخجل من تقديمه الى قراء العربية كافة دليلا قاطعا على تطور «المغرب الجديد» ونهضته الفتية، وحجة دامغة على أن «الفكر المغربي» لا يزال اهلا لأن يساهم اليوم - كما ساهم من قبل - في توجيه الثقافة العربية، وبناء النهضة الاسلامية. فشكرا لادبائنا على جهودهم المباركة - من شارك منهم في هذا الجزء، ومن لم يشارك - في سبيل نفع المواطنين داخلا، ورفعة اسم الوطن خارجا. وشكرا للعالم العربي الناهض على انعطافه نحونا، وتشجيعه لنا، وليس بغائب عن قرائنا الافاضل انه ما كاد الاستاذ الطريس يدعو لاقامة ذكرى المتنبي من منبر زميلتنا «السلام» الغراء حتى رددت صدى دعوته اوساط الشرق الادبية، وقامت مناقشات عنيفة حولها في كثير من الصحف العربية، وما اقبل موعد الذكرى حتى اقيمت للمتنبي حفلات تذكارية جليلة في كثير من الاقطار وفي طليعتها مملكتنا المغربية، وما كاد الاستاذ الناصري يدعو الى ذكرى الجاحظ في العدد الثاني من هذه المجلة (ربيع الثاني 1354- يوليو 1935) بمناسبة انتهاء احد عشر قرنا على وفاة الجاحظ في السنة القادمة (1355) حتى تلقف دعوته عماد قوي من اعمدة العروبة والاسلام، ذو صوت مسموع، وراي متبوع، هو العلامة الشهير السيد محمد كرد علي عضو المجمعين القاهري والدمشقي، ولم يلبث ان ردد صداها في زميلتنا «الرسالة» الغراء (العدد 126-6 رمضان 1354- 2 دجنبر 1935) وحض أدباء العراق خاصة وادباء الاقطار العربية كافة على الاحتفال بذكراه احتفالا مناسبا. واذا كان فريق من ادبائنا قد ادوا شيئا من واجبهم نحو المتنبي فأملنا عظيم ان يؤدي ادباؤنا كافة واجبهم الادبي نحو الجاحظ تاما كاملا وما ذلك على همتهم بعزيز.

المشرق والمغرب

في العروبة صنوان

وصلنا هذا المقال الممتع من سمو امير البيان في آخر ساعة فرأينا من البر العاجل موافاة قرائنا به في هذا الجزء" الذي نختتم به سنتنا الاولى، نظرا لارتباطه بفكرة الوحدة العربية التي تعتبر ذكرى المتنبي مظهرا من مظاهرها القوية، و «المغرب الجديد» يشكر سمو الامير على تفضله بما كتب، وانصافه فيما قال. ابقاه الله ذخرا للعروبة وعمادا للوحدة:

قرأت لبعض إخواننا المصريين كلاما نقله «المغرب الجديد» يتعلق بملكة اللغة العربية في الاقطار المغربية ذهب فيه اخواننا هؤلاء الى انها اضعف منها في المشرق وانه لم يوجد في البلاد التي يطلق عليها اليوم شمالي افريقية من النوابغ من وجد في المشرق الى غير ذلك مما ردت عليه مجلة «المغرب الجديد» رداً لم تحد فيه عن محجة الصواب. ولقد تأملت في هذا الموضوع كثيراً وراجعت فكري واعملت الروية معملها حتى اجد وجهاً وجيهاً لهذا الرأي الذي ذهب اليه هؤلاء الاخوان المصريون فلم اجد له اصلا يعول عليه وما حملته منهم الاعلى عدم التوسع في الاطلاع. فالحقيقة التي لابد لكل مفكر مطلع من قبولها هي أن الغرب والشرق في العروبة سيان، وان احدهما لا يرجح على الآخر، واذا قيل انه يوجد في الغرب عناصر هي في الاصل غير عربية مثل البربر وغيرهم ممن ينزع به عرق اوربي فالجواب هو ان هؤلاء كلهم قد استعربوا ومن لم يستعرب منهم فقد اسلم والاسلام والعربية لا يفترقان. وبالاختصار من عقبة السلوم الى السوس الاقصى البلاد بلاد عربية محضة لا يفضلها المشرق في شيء من هذه الجهة، والاجناس التي ترجع الى اصل غير عربي من سكان المغرب يوجد في المشرق من يقابلها سواء في مصر او في الشام او في العراق، ولا يوجد عرب خلص في الحقيقة قديما وحديثا غير اهالي جزيرة العرب: الحجاز ونجد واليمن وعمان. ومع هذا فان الحجاز نفسه لاسيما الحرمين الشريفين فيه غرباء كثيرون من قديم

الزمان قد اختلطوا بالعرب فاستعربوا وهم اخلاط من جميع العالم الاسلامي. وكذلك اليمن المعدود آلان اعرق البلاد العربية فى العروبة غير خال من اقوام ليس اصلهم من العرب مثل الابناء الذين اصلهم من الفرس تزوج آباؤهم من العرب فسمي ابناؤهم بابناء الفرس ثم حذفوا المضاف اليه فبقيت لفظة الابناء وحدها وصار يقال للواحد منهم «ابناوى». واما عمان والبحرين وسواحل العرب على الخليج الفارسى ففيها كلها من الهنود والفرس وغيرهم ما ليس مجهولا. اذاً الشرق والغرب فى هذا الامر سيان كل منهما أمه العروبة ولغته العربية والاخلاط الذين فيه قد استعربوا بمرور الزمان وصاروا معدودين من العرب.

فلنبحث الآن فى الملكة العربية نفسها من حيث البلاغة والبيان، فاذا كان يوجد فى الشرق نوابغ فيها فقد نبغ لهم اقران وامثال فى الغرب ايضا. نعم ان الغرب لا يضارع الشرق فى سعة الرقعة وكثرة الساكن فلذلك يمكن أن يقال ان الذين نبغوا فى الشرق هم اكثر عددا من الذين نبغوا فى الغرب ولم يكن ذلك من ضعف الملكة العربية فى الغرب عنها فى الشرق. ولكنه كان من اجل كون الشرق اوسع اقطاراً واحصى اعداداً واما إذا روعيت النسبة العددية فما من مؤرخ ولا من عالم اجتماعي في العرب يقدر أن يقول إن الشرق اقوى ملكة عربية من الغرب أو إن المشارقة يقيمون من شأن العربية ما لا يقيمه المغاربة. وإذا قلنا إن الشرق فيه الازهر وفيه الاموي وفيه مراكز تدريس ومطالع انوار تنبث منها اشعة العربية فالمغرب ايضا فيه الزيتونة وفيه القرويين وفيه مشارق للعربية تضاهى مشارق الشرق وربما تزيد عليها احيانا. واذا اضفنا الى الغرب بلاد الاندلس في وقتها وهي داخلة فى الغرب بحكم الطبيعة، ورأينا نسبة

ادباء العربية فى الاندلس الى عدد السكان فان الغرب بذلك يرجع على الشرق بلا نزاع، لانه لم يوجد قطر عربي انتشر فيه علم العربية وتمحض انتشاره تمحضه فى الاندلس كما سنثبت ذلك ان شاء الله تعالى في كتابنا «الموسوعة الاندلسية» وسيكون هذا المبحث فى الجزء الاول منها لتعلقه بالخطط، ولاننا توخينا فيه ان نذكر اسماء العلماء والادباء والحكماء الذين اشتهروا من أهالى كل مدينة وكل قصبة وكل قرية بحيث وجدمن المدن الاندلسية من انتسب اليها مئة أو مئتان من هذه الطبقة أو ثلاثمائة أو اربعمائة الى حد الالف وربما يكون العلماء المنسوبون الى قرطبة قدتجاوزوا الالف، فلم توجد بقعة على وجه الارض بسقت فيها اغصان الادب العربي بسوقها فى ذلك الفردوس المفقود. ولقد نسي اخواننا هؤلاء الذين نبزوا المغرب بدنوه عن المشرق فى درجة العروبة ان سوق العربية لا تكون قائمة فى العادة الا فى ظل الدول العربية. والحال أن الدول العربية منذ مئين من السنين قد تقلص ظلها من المشرق ولم يبق منها شيء الافي جزيرة العرب وفى بقاع محصورة منها وأما سائر الديار الشرقية فكان قد غلب عليها الترك، وهم وان كانوا مسلمين وقد نصحوا فى خدمة الاسلام بما لا مزيد عليه فلم تكن لغتهم العربية ولم تزل التركية هي لغتهم الرسمية وانما كانت العربية بينهم لغة الدين والصلاة وكانت تقرأ فى المساجد وقد كان ينبغ فيهم قديما الفحول في علم العربية فما زال حب التأدب بالآداب الاوربية غالبا عليهم حتى ضعفت فيهم الملكة العربية إلى أن كادت تندرس بالمرة وبقي منفردا بها رجال الدين فقط. ولما كانت المخاطبات الديوانية والاوامر الرسمية وجميع بلاغات الحكومة هي بـاللغة التركية لم يكن لجواد اللغة العربية ان يجول فى دواوين الحكومة كما كان يجول

أيام بنى أمية وبنى العباس والفاطميين بل أيام الايوبيين والمماليك في مصر اذ كانت لغة الدولة هي العربية الفصحى وكان ينبغ امثال عبدالحميد الكاتب وابن المقفع والصابي والصاحب وابن العميد والقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني ومن فى ضربهم، بل كانت الكتابات الرسمية إذا أذيعت فى البلاد العربية تولى ترجمتها من لم يشموا رائحة العربية فجاءت ركيكة مستركة لا يحسن الانسان أن يكمل قراءة البلاغ منها الالأيا، ومن كثرة توالى هذه التراجم على الامة أصبحت لغة قائمة بذاتها ليس فيها من العربي الا الحروف ولقد يكون أصلها التركي بليغا لكنها عند ما كانت تنقل الى العربي بذلك اللسان الذى يصح أن يقال فيه قوله تعالى (اعجمي وعربي) كانت تنفر منها الطباع وتنبو عنها الاسماع، وتفوتها الهيبة وينقصها الوقار ويخطئها التأثير، الذى هو بغية الدولة من خطاب الجماهير ولا عجب فقد قيل: ليس لمنقوص البيان روآء ولو حك بيافوخه عنان السمآء. ولقد كانت لغة الدواوين في مصر اركك منها في سائر البلاد العربية مع أن مصر كان لها استقلالها الداخلي ولم تكن تحت الادارة التركية مباشرة كما كانت الشام والعراق مثلا، فبرغم استقلال مصر الداخلي وبرغم الثقافة العربية القديمة وبرغم الجامعة الازهرية التى هي اعظم مراكز العربية فى العالم كانت لغة الدواوين فى مصر المثل الادنى للبيان، والجناية العظمى على لغة القرآن، وكانت النسبة منقطعة تماما بينها وبين لغة الدواوين فى المغرب أو فى تونس اللتين إذا قرأت من حكومتيهما بيانا أوظهيرا شعرت هناك بوجود حكومة عربية تخاطب قومها بلسان عربي مبين. ولقد اصطلحت هذه الحالة فى مصر بعض الشيء إلا أن لغة الحكومة لا تزال متأثرة بالاساليب الاعجمية المعهودة، ولم نجد الدواوين بمصر شاركت

سائر معاهد العلم واندية الادب فى النهضة اللغوية العربية التى لاننكر حصولها فى وادى النيل فى هذا العصر. ثم انى من زمن الحداثة كنت الاحظ ان علماء الشريعة من أهل المغرب يكون لهم حظ من الادب، وقلما عرفت منهم عالما إلا وجدته أديبا إذا أمسك القلم انثالت جمله سراعاً على حين المدرسون فى مصر والشام قد يكون منهم من اقرأ المعانى والبيان طول حياته وربما استظهر المطول والملخص وغيرهما وعلق عليهما حواشي وإذا انتدبته لكتابة اسطر معدودات تعذر عليه ذلك لعدم تمرنهم على الكتابة أو لاستكثارهم من حفظ المتون كما اشار اليه ابن خلدون فى المقدمة. وأما رجال الشريعة فى المغرب فقد عهدت فيهم كثيرا من المنشئين وبالاجمال فلا أوافق الذين قالوا بانحطاط المغرب عن المشرق لا فى العروبة ولا فى العربية، ولا أقول الا أنهما فرسا رهان ولكل منهما نوابغه ومصاقعه وشعراؤه ومنشؤه ومؤرخوه وحكماؤه كما له فقهاؤه ومحدثوه وقراؤه ومؤلفوه أصحاب التصانيف الممتعة والكتب المعتمدة فى التدريس (وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير واحسن تاويلا)   شكيب ارسلان

اعتذار ارسل فريق من كتابنا الافاضل، الى قلم التحرير ابحاثا لا تتصل بموضوع الذكرى الالفية التى قصر عليها هذا الجزء، فاضطررنا الى تاخير نشرها لاعداد السنة الثانية، حفظا لوحدة هذا الجزء الخاص منذ الاصل بذكرى المتنبى، ولهذا يعتذر «المغرب الجديد» الى مساعديه الكرام، شاكرا معونتهم أولا وأخيراً. وأرسل حضرات السادة: عبدالسلام الحضري (شفشاون)- عبد الجبار الادريسي (فاس) - عبدالقادر حسن (مراكش) - محمد الجندي (فاس) قصائد تتعلق بالذكرى الالفية، فاضطررنا الى الاكتفاء هنا بالتنويه بها نظراً لكثرة الابحاث، وضيق الصفحات المحدودة لهذا الجزء، فمعذرة لحضراتهم

ابو الطيب المتنبي

« الدعوة للاحتفال بذكراه الالفية، اصول شعره من اخلاقه، شاعريته »

الدعوة للاحتفال بذكراه الالفية

عند ما دعوت للاحتفال بذكرى مرور الف سنة على وفاة شاعر القوة والمثل، كان العالم الغربي من اقصاه الى اقصاه، يقيم احتفاله بمائة سنة انقضت بعد سقوط القلم الذى كتب فاوست وفرتر من يد صاحبه، فعز على ان يبقى العرب دون هؤلاء الآريين تلامذة الشرق المدينين له رغم حملهم عليه وتملصهم منه. فناديت الكتاب والشعراء وحملة الاقلام، ولم اكن انادى في الواقع غير من هم فى مركزى بالنسبة لابى الطيب، اذ ليس متيسرا لمثقف عظيم القدر او صغيره ان ينكر يد المتنبي في تكوين اسلوبه الادبى. ولا ارى فى ادبنا العربي من يقاسم ابا الطيب هذا الحظ سوى الجاحظ، فتأثيرهما في الاسلوب العربى قديما وحديثا تأثير عميق الى حد بعيد. فمن عصر ذلك الصاحب الذي هاجم ابا الطيب وقام بالتشنيع عليه واحصاء عيوبه الى عصرنا هذا والكاتب والشاعر يجدان في معانى المتنبي وصوره والفاظه مادة لإنماء ذوقهما الفني. فشاعر له هذا المركز فى لغة من اللغات يصح ان ينسى بعد ان صار انتاجه ميراث اجيال واجيال عاشت وقضت نحبها فى بطن عشرة قرون؟

ولا انكر ان من اسباب الدعوة اعترافا شخصيا بفضل المتنبي فقد قضيت شطرا من حياتى الدراسية صديقا حميما لديوانه، فاحيانا احفظ قسما من روائعه، واحيانا اتصفحه منشدا او متمعنيا. واذكر انى كنت فى طور من اطوار التشاؤم ما كان يضمحل ويمضى لولا شعر المتنبي الذى يقبل الحياة على علاتها ليجد الميدان واسعا لذلك الصراع اللذيذ الذى نضطر لامتطاء صهوته فى اغلب مراحل العيش. واذكر انى

تقمصت روحه حتى انى حفظت قصيدته الميمية التى يصف فيها الحمى وانا مصاب بالعلة التى اصيب بها شاعرنا يوم ان نظمها. وقد مرت شهور وشهور ولسانى لا يلقى من الاقوال التى تعود الناس الاستشهاد بها سوى تلك الاقوال التى نطق بها فم فتناقلتها ملايين الافواه : اقوال شاعر العربية المتنبى .

بعد انتشار الدعوة ظهر كالعادة خصوم لها، فمن الخصوم من حاول صد الناس بدعوى هجو المتنبى لكافور صاحب مصر وتعرضه للمصريين، ومنهم من جعل الانسانية المهذبة انبل واسمى من ان تحتفل بشاعر لم يهو غير رؤية الدم وجماجم القتلى وجثث الناس جزرا لقشاعم النسور واحداثها. ولكن من حسن حظ المتنبى ان الاول لم يكن له فى حياته صولة ولا جولة فى حماية الوطنية وصيانة القومية، بل كان على الدوام قلما يباع ليهاجم المبادىء الوطنية الصميمة، وحصادا من ورق تتدرع به الرجعية السياسية لتصد تيار الاخلاص المتدفق والغيرة المكتسحة، وان الثاني الذى عرف بالتقليد المرذول رغم دعواه للتجديد المحمود قد تشابهت عليه المسالك واختلطت امامه الحقائق، فحاول بنقده لنفسية شاعرنا ان يثير فينا عواطف السلم والحب العام، ذلك النقد الذى اراد ان يظهر لنا فيه تأثره باحدث نظريات النقد الادبى: نظرية فرود التى بدأت بالطب وتمدته الى مناح اخرى من الانتاج البشرى، فلم يقل ما يصد عن الاحتفال، بل ولا قال ما يدلنا على تمكنه من نظريات فرود البعيدة الغور[1]. وقد يوجد غير هذين ممن اعترضوا دون اقامة الذكرى الالفية ولم اطلع على كتابتهم، وكل ما اطلعت عليه هو ان العالم العربى — حتى فى الجهات النائية التى لم يعرف المتنبى ولا معاصروه اسمها —

(1) يقصد الكاتب بالاول الاستاذ عبد القادر المازنى وبالثانى الاستاذ سلامة موسى

تقمصت روحه حتى انى حفظت قصيدته الميمية التى يصف فيها الحمى وانا مصاب بالعلة التى اصيب بها شاعرنا يوم ان نظمها. وقد مرت شهور وشهور ولسانى لا يلقى من الاقوال التى تعود الناس الاستشهاد بها سوى تلك الاقوال التى نطق بها فم فتناقلتها ملايين الافواه : اقوال شاعر العربية المتنبى .

بعد انتشار الدعوة ظهر كالعادة خصوم لها، فمن الخصوم من حاول صد الناس بدعوى هجو المتنبى لكافور صاحب مصر وتعرضه للمصريين، ومنهم من جعل الانسانية المهذبة انبل واسمى من ان تحتفل بشاعر لم يهو غير رؤية الدم وجماجم القتلى وجثث الناس جزرا لقشاعم النسور واحداثها. ولكن من حسن حظ المتنبى ان الاول لم يكن له فى حياته صولة ولا جولة فى حماية الوطنية وصيانة القومية، بل كان على الدوام قلما يباع ليهاجم المبادىء الوطنية الصميمة، وحصادا من ورق تتدرع به الرجعية السياسية لتصد تيار الاخلاص المتدفق والغيرة المكتسحة، وان الثاني الذى عرف بالتقليد المرذول رغم دعواه للتجديد المحمود قد تشابهت عليه المسالك واختلطت امامه الحقائق، فحاول بنقده لنفسية شاعرنا ان يثير فينا عواطف السلم والحب العام، ذلك النقد الذى اراد ان يظهر لنا فيه تأثره باحدث نظريات النقد الادبى: نظرية فرود التى بدأت بالطب وتمدته الى مناح اخرى من الانتاج البشرى، فلم يقل ما يصد عن الاحتفال، بل ولا قال ما يدلنا على تمكنه من نظريات فرود البعيدة الغور[1]. وقد يوجد غير هذين ممن اعترضوا دون اقامة الذكرى الالفية ولم اطلع على كتابتهم، وكل ما اطلعت عليه هو ان العالم العربى - حتى فى الجهات النائية التى لم يعرف المتنبى ولا معاصروه اسمها -

(1) يقصد الكاتب بالاول الاستاذ عبد القادر المازنى وبالثانى الاستاذ سلامة موسى

من شرايينه، وحركاتها من اعضائه؛ ونفس «فرتر» التى لم ينتقد منها سوى مـا تصرفت فيه صنعة الشاعر، هـل لها محور سوى شباب ذلك القلب الذى احب منذ طفولته حتى مصرعه، واستمر مستغنيا عن النتيجة المفجعة للحب بالرفض والفرار؛ وهـل (الذنب والعقوبة) و (العفاريت) و (اخوان كرامازوف) لا تكفينا للتغلغل فى نفسية دسيطفسكي القصصي الروسي العظيم؛ وترينا انه كشخصيات قصصه عـلى الرغم مـن استساغته للشر يسعى نحو الكمال!؟ وهذا نجده حتى فى نفس مـن جعلوا ابطال قصصهم وملاحمهم آلهة تشقى وتسعد! فمن الصعب جدا مع هذا ان نستطيع الكشف عن مكامن جديدة في نفسية هذا الشاعر، ولكن على الرغم من ذلك سنحاول محاولاتنا لنعرف على الاقل بعض اصول شعره من اخلاقه. واعنى بها تلك الاخلاق التى تـأثرت بعامل واحـد أو عـوامل متعددة وتجلت فى حياة شاعرنا حتى امكن ان ترد اليها انواع شعره على مابينها من اختلاف او تناقض، وهي فى نظرى لا تخرج عن ثلاثة:

شهير ان ابا الطيب كان عربيا قحا من ابيه وامه، واشهر من ذلك ان البدو فصحاء اللسان، شجعان القلب، ذوو طموح وعزم وصبر. فاذا وجدنا المتنبى جامعا لهذه الخصال فلا نحار فى تعليل شيء من ذلك مـا دمنا نعرف يـد الوراثة فى تكوين الفرد شكـلا وعقلية ونفسية، ولكن مقياس الوراثة لا يكفى فـى تعليل كل ظاهرة نفسية، فكم تلفى هـذه أعجز عن قطع الشك فى صغرى الظواهر فضلا عن كبراها. ومـن سوء الحظ ان ديوان المتنبى اغلبه مدح، وقلما نعثر على ذلك الشعر الحر الذى لا يصدر عن الشاعر لارضاء الممدوح، بل للتعبير عـن عراك او شهوة او حسرة في النفس. وكثيرا ما نريد خداع انفسنا فنقول ما قاله انامونو عن

سربانطس : «لا يهمنا ما يقوله ضون كيشوت وانما يهمنا ما نفهمه نحن منه» ولكن لا نستطيع تعدي الحقيقة الواضحة وهو انه مدح قلما يقع العثور فيه على نجوى النفس وحديث الضمير. فهذا مع الجهل التام بطفولته، واكتساح الملكة الشعرية والثقافة الوصفية لمعالم طبعه حال بيننا وبين معرفة غرائزه المكبوحة التى لها النفوذ الاعظم في كثير من مظاهر النفس البشرية. وعلى كل حال سواء عرفنا ذلك ام لم نعرفه فشعر المتنبى وحياته ينطقان بالثورة، والثورة اصل اساسي من اصول شعره. وهل من المعقول ان لا يكون ثائرا على كل شيء من خرج من البداوة معتقدا انه جامع لكل خصال الكمال، متزود بكل ما يؤهله للحكم والسيطرة وفرض الارادة، فاذا باعتقاده يصطدم باعتبارات جديدة لم تألفها طفولته ولا اسلافه فيخيب ظنه وينقبع امله؟ ذلك عين ما حصل للمتنبى، ويحصل لكثير من البائسين الذين يقيسون الاحوال بمقياس واحد، فاذا بارحوا حالة مملوكة العنان الى حالة شرود انقلب اطمئنانهم سخطا ورضاهم توجعا، فاسمعه يقول:

افاضل الناس اغراض لدى الزمن   يخلو من الهم اخلاهم من الفطن
لا اقترى بلدا الا على غرر   ولا امر بخلق غير مضطغن
ولا اعاشر من املاكهم ملكا   الا احق بضرب الرأس من وثن

وأنصت لقوله:

وهكذا كنت في اهلي وفي وطني   ان النفيس غريب حيثما كانا

وقوله:

ما مقامي بارض نخلة الا   كمقام المسيح بين اليهود
انا فى امة تداركها الله   غريب كصالح فى ثمود

وقوله:

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم
من الحلم ان تستعمل الجهل دونه اذا اتسعت في الجهل طرق المظالم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وقوله:

وجنبني قرب السلاطين مقتها وما يقتضيني من جماجمها النسر

نفثات كثيرة كهذه يعثر عليها بين حين وحين في ديوانه تقنعنا بان المتنبي كان يعتقد ان الشعر والشجاعة كافيان لحكم الناس، فعرفه الزمن خطأ تقديره، فانقلب متهجما على الزمن والوسط وكل من أمل فيه تحقيقا لامانيه وتوصيلا لمقاصده. وأعتقد ان حب السلطان هو من اهم ما ورط ابا الطيب في كثرة المديح، فقد تمسح بذوي النفوذ من الفقهاء والكتاب ثم الحكام ثم الامراء والملوك ساعيا وراء المعالي لا المعاش كما يقول لابي الشعائر:

فسرت اليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

فقد استطاع المتنبي في زمن قصير ان يجمع ثروة ضخمة لتكاثر الهدايا والصلات عليه، لان مدحه اذ ذاك كان (موضة) الوجهاء والحكام، وكان عارا ان لا تسير اسماؤهم وما يدعى لهم من اوصاف ومحامد بسير شعره في الآفاق. فلو تأخر بالمتنبي عصره لاختار ان يكون في صفنا حاملا لعلم الثورة ينعى على الظالمين ظلمهم، ويسخط كلما فقدت حرية اوضاع حق، ولكن عصر المتنبى ما كان يقبل غير من هيجتهم للثورة الانانية الجموح والاثرة المقوتة. وعلى الرغم من ذلك لم يخرج أبو الطيب عن كونه ثائرا، وللثائر حرمته لانه يسعى على الدوام نحو الكمال!!

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

هذه الثورة من اهم اصول شعره الحر الطليق.

نجده يصل في هذه الثورة الى ابعد الحدود ثم يرجع للتسلي بما يراه مفخرة من مفاخره وميزة من مزاياه، فيظهر اعجابه بشعره واكباره لتأثيره في الناس والقضايا، وقلما توجد قصيدة تثور فيها براكين سخطه دون ان يعود فيها الى السلوى بمواهبه، وان كانت تلك السلوى تظهر في مواطن عدة صياحا وحماسا وغضبا؛

فها هو يقول بعد ان تحسر وسخط من سماع سيف الدولة لقول الوشاة فيه:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا   بانني خير من تسعى به قدم

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي   واسمعت كلماتي من به صمم

انام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

وكم تكررت هذه الصورة فتكرر معها حنقه؛ ويقول وقد ضاق من حساده وطالب سيف الدولة بكبتهم:

وما الدهر الا من رواة قصائدي   اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا   وغنى به من لا يغني مغردا

اجزني اذا انشدت شعرا فانما   بشعري اتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتي فانني   انا الطائر المحكي والآخر الصدى

وكما يتسلى بتبريزه في الشعر يتسلى كثيرا بشجاعته فكم عاد بعد اليأس من الزمن وقلة الثقة في الخلان الى التغني بشجاعته التي لم تخنه حتى عند الالتقاء بفاتك بن ابي جهل:

وانا لنلقى الحادثات بانفس   كثير الرزايا عندهن قليل

يهون علينا ان تصاب جسومنا   وتسلم اعراض لنا وعقول

وبتنا نقبل اسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم انى الفتى

ويعتريه في ثورته ما يعترى امثاله من الثوار عند ما يتكاثر ما حنقوا عليه وتقل لديهم الحيل للتخلص مما هم فيه من اضطراب وضيق، فتسمعه يقول وقد اخذ منه الالم الهادىء مأخذه:

عدوى كل شيء فيك حتى لخلت الاكم موغرة الصدور
فلو انى حسدت على نفيس لجدت به الى الجد العثور
ولكنى حسدت على حياتى وما خير الحياة بلا سرور

فهو قد استسلم ولان ولكن ليعود الى سخطه فيرده هذا إلى السلوى ويرجع بعد ذلك الى القاء السلم والرضى وليس له في ذلك سوى دواء الساعة ليستسيغ ماء الحياة الكدر!

لماذا اكثر اعداء المتنبى وخصومه ومزاحموه؟ هذه ناحية مهمة تكشف لنا عن خصلة بارزة في شخصية شاعرنا: قلة المرونة واللباقة. فالمتنبى عاش في عصر لا يمكن ان يحب فيه غير العابد والفاسق، وما تعود الناس رؤية شاعر عابد متبتل الا نادرا، فكان بين الشعر والفسق اذذاك قرابة ودم، وكان نفس الممدوحين يستعينون بالشعراء على ملذاتهم وشهواتهم. فشاعرية المتنبى التى ينقصها هذا العنصر مهما عظمت قوتها وعلا صيتها، لا يمكن ان تكون لطيفة بين قوم تعودوا اللهو والمجون. المتنبي كان ذا شخصية جافة لم يرثها عن آبائه الشعراء، لم يكن من وصاف الخمر ولا من شاربيها

اذا ما شربت الخمر صرفا مهنئا شربنا الذى من مثله شرب الكرم
الا حبذا قوم نداماهم القنا فيسقونها ريا وساقيهم العزم

لاحبتي ان يملؤوا بالصافيات الاكوبا
وعليهم ان يبذلوا وعلي ان لا اشربا
حتى تكون الباترات المسمعات فاطربا

فاذا سكن بعض المرات فانما يشربها مرغما او مجاملا او مضمنا الحظوة او المال:

ولا لحبيها ولكنني امسيت ارجوك واخشاك

لم يكن من العشاق الهائمين بالنساء وان وصفهن او تغزل فيهن فليستعين بالغزل على التخلص للمدح، وقد نبع في شعره غير ما مرة رأيه الحقيقي في المرأة، وانه لصوت ضدها !!:

ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام
اذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما
يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

لم يكن سهلا ليقع في فخ الحب ويرى صاحبه مختارا لا مضطرا:

وما الحب الا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب

واذا ادعى للهو اجاب:

ما دمت من درب الحسان فانما روق الشباب عليك ظل زائل
للهو آونة تمر كانها قبل يزودها حبيب راحل

واذا وزننا ذوقه الفني بقوله في الغناء:

ما ذا يقول الذى يغنى ياخير من تحت ذى السماء

شغلت قلبى بلحظ عينى   اليك عن حسن ذى الغناء

خرجنا بصقر، خصوصا اذا كان ممدوحه من حاملى جوائز القبح والبشاعة!
وعند ما قال له ممدوحه الاوراجي الكاتب: وددت يا ابا الطيب لو كنت اليوم معنا فقد ركبنا ومعنا كلب لابن ملك فطردنا به ظبيا ولم يكن لنا صقر فاستحسنت صيده. اجابه: انني قليل الرغبة في مثل هذا. وعندما طولب بوصف هذا النوع من الصيد انشأ قصيدة في وصفه ليقول في الختام:

اذا بقيت سالما ابا علي   فالملك لله العزيز ثم لي !!

فالمتنبي لم يكن - كما رأينا - رجل مجتمع لتميل اليه القلوب وتستملح عشرته النفوس، بل كان كما يصفونه وكما يبدو في شعره رجلا صريحا لا يجامل، وغليظا لا يلين، ومتكبرا لا يعمل ما يحتمل عليه تكبره، واضطرته ظروف الحرفة ان يعيش بين تلك الافاعى التى تعودت سكنى القصور وملازمة سكانها فما كادت ترى فيه حدة الذكاء وسرعة البداهة ووفرة الحفظ وقوة الطبع حتى بدأ كيدها. فلو عرف كيف يستميلها لكون منها حاشيته. فهذا - مع ما قدمنا من فقد ابى الطيب لما اصطلحوا على تسميته زينة المجتمع وحرصه على المجد فقط - جعله سيء العلاقات مع من عرفلوا مساعيه، وكدروا عيشه، واحدثوا له من المشاكل الشيء الكثير. وكلما قوي كيد الكائدين وضعف الامل في الحكم والسلطان، ازداد جشع ابى الطيب وعظم حرصه على المال. وهذا معقول لان الرجل أصبح مهددا في حياته، يحتاج الى وفر ليعيش به ويدفع عنه ما يقف امامه من اخطار. وغريزة حب الحكم لم يستطع التخلص منها، فهلا يجمل به ان يجمع ما يمكن من مال ليتوصل به في النهاية الى اربه إن كان مدحه للملوك واشباه الملوك لم يوصله الى ما يريد ويتمنى؟ فعند ما ضعف امله

في كل ممدوح اشتد بخله وكثر حرصه على الجوائز. فاذا كان اولئك الامراء والملوك والوزراء لم يقدروا فيه طموحه إلى الولاية ويحققوا له هذه الامنية التى طالما اظهرها دمعا وأوها ولفظا، فليستغل غرورهم وكبرياءهم بالمدح المبالغ فيه ليجمع منهم ما عسى ان يوصله لمقصده الذى عاش وتألم وشعر من أجله. وما دام الامل كله قد انحصر فيما استطاع اقتناصه من ممدوحيه فليبق كل ذلك محفوظا لا يمس، وليتهمه بالبخل من يشاء. هذه هي الاخلاق التى يمكننا ان نعدها اصول شعر ابى الطيب وهي الاخلاق التى تهم الباحث في شاعرية شاعر

شاعرية المتنبي

وضعت شاعرية ابى الطيب فى الميزان منذ قرون وقرون، فانتصر لها المعجبون بها، وعابها من اعانته بعض عيوبها على ارضاء دخل فى نفسه. فقيل: إن فى شعر المتنبى لفظا غريبا، ومعنى معقدا، ووزنا مكسورا، وافكارا سوقية مبتذلة، وغموضا فى الاغراب، وضعفا فى العقيدة، ورقة فى الدين، واغترافا من الفلسفة، واستعمالا لمصطلحات الصوفية، وما الى ذلك من المسائل التى عدت حتى عند المنصفين فى زمان المتنبى عيوبا فى شعره. وكما ترون، كثير من هذه العيوب قد فقد فى زماننا صفة العيب، وأصبحنا ننظر اليه كعنصر من عناصر المتانة والجمال والقوة. وعكس القول يمكننا ان نقوله فى فضائل شعره، فكثير من ميزاته نعدها اليوم صنعة تنبو عن الطبع والذوق، ولعبا يتنزه عنه شاعر شرب من نبع الحياة الخالص. فليس فى الامكان ان يبقى النقد الحاضر خاضعا لقواعد النقد القديم، لان قيم الاشياء قد تغيرت تغيرا عظيما. فلم يبق جميلا كل ما عد جميلا ولا شائنا كل ما عد كذلك. وليس

فى وسعنا الان نقد شعر المتنبى بالتفصيل فلذلك سنكتفى بالتصوير المجمل لشاعريته: لم يكن ابو الطيب ذا شاعرية حكمية، فلم يكن قط صاحب دراسات منهجية منظمة ولا ذا آراء ثابتة لا تتغير، بل كان ابن لحظته يأتيه المثل فيرسله، وكثيرا ما تكون مواقف القول متناقضة فتصدر الاحكام والامثال ايضا متناقضة متباينة، وكم يحاول الباحث الوصول الى الام فى فكره الفلسفية فلا يلفى غير افكار منثورة لقيطة تكونت من ثقافة واسعة غير منتظمة، وتجارب شخص عرف كيف يستغل شعوره بالحياة، ارسلها صاحبها تأييداً لقول ادعاه او شاهدا على خاطر خطر في نفسه او نفس ممدوحه، فمن هذه الناحية نجد البون شاسعا بينه وبين زميله (كيت) المثل الاعلى فى نظرى للشاعرية الحكمية.

وهل كان المتنبى ذا شاعرية شعرية؟ ولا ذا شاعرية شعرية. تلك الشاعرية التى يتجلى فيها هيام الشاعر بروحه الشعرية وفناؤه فيها حتى يصبح كل رزق يرزقه، ونصيب يلحقه، ضحية على معبدها المقدس. (ابديو) ثالث ثالوث الشعر الرومانتي لم يكن سوى تلميذ فى هذه المدرسة التى يضحى فيها بكل شيء فى سبيل الشعر، فلذلك ضيع ثروته واقرب من قيصره وزوجه وبنته واصدقاءه ليتخلص لعبادة (موسته) ومن نفس المدرسة تخرج اسكار ويلد وابن الرومي وبو دلير وابو نواس واشباه لهم كثيرون فى الاداب الانسانية. فهؤلاء لم يشغلهم شيء عن تلك الروح الشاعرية التى تغلغلت فى احشائهم واصبحت سيدة حياتهم، لا يسعدون الا بها ولو كان فيها ما يعده الناس تعبا وشقاء. فهم للشعر قد خلقوا، فان لم يسعدهم الالهام بقيت ارواحهم كبطن المنهوم متلهفة على غذائها؛ ويتوسلون بكل ما يجدونه فى الحياة من خير وشر لبقائهم على

صلة بموستهم عن طريق الالهام، كما كان معبد يتوسد الحجر وسط الصحراء لتأتيه الجن باللحن الذى تحتاجه نفسه او كما كان بتهوفن يمشي في الغاب دون انقطاع حتى يرجع باللحن الذى لا تسمعه اذنه!! فهذا النوع من الفنانين لم يعيشوا الا للفن، فكل ما عاشوه او تخيلوه مادة تهضم لتخرج لحنا يسمو عن المادة فيقاسم القلوب رقتها، ويشاطر الاجيال طولها وجبروتها، فلو اخرج هؤلاء من معبدهم لاحسوا بالسعادة شقاء، وبالنعيم جحيما. غايتهم من الحياة ان يرتلوا آي الالهام من كتاب النفس، فهم لذلك خلقوا ولذلك عاشوا، وفى ذلك اختاروا الفناء. ومن العجيب انهم بفنائهم يخلدون.

اذا لم يكن المتنبى من هؤلاء ولا من اولائك فمن أي مدرسة تخرج؟ ليس ذا شاعرية حكمية ولا ذا شاعرية شعرية فمن أي نوع كانت شاعريته، هل عاش المتنبى عيشة الحكيم بفكر هذا وبرودته؟ لا. هل عاش المتنبى لكي يكون شاعرا يصوغ نفس حياته تفاعيل وقوافي؟ لا. هل عاش شعره من اجل شخصه؟ نعم. اذن فالمتنبى ذو شاعرية انسانية، اخاض في شعره وكذب، مدح وذم، تألم وألم، ثار وانهزم، ابان وغمض، شعر حي لا شك في حيويته، شعر يمثل صاحبه فى كثير من الاحيان فلا ريب في صدق تمثيله، شعر عبر قطعا عن خوالج النفس وهجساتها، شعر غالب الزمن فغلبه وقارع القرون فتركها صرعى، شعر عيب وانتقد فسطعت شمس صفائه على رغم العيب والانتقاد، ولكن هذا الشعر مع كل ما تقدم لم يكن لصاحبه الشغل الشاغل والامنية العظمى. بل اتخذه جناحا ليلحق به نجم السلطان، وسيفا يهدد به جيش الحسدة والمنافسين والمقاومين. لم يشعر المتنبى لكي يكون شاعرا بل شعر لكي يكون مالكا

اثر المتنبى

فى الادب العربي بالمغرب

مدخل البحث

أخواني وسادتي: تحدثوا ان رجلا من مدينة السلام كان يكره أبا الطيب فتالى على نفسه ان لا يسكن مدينة يذكر فيها اسمه وينشد بها شعره، فهاجر من بغداد وكان كلما وصل بلداً سمع فيها ذكره يرحل عنها، حتى وصل الى اقصى بلاد الترك فسأل أهلها عن أبى الطيب فلم يعرفوه، فاطمأن اليها وسكن بها فلما كان يوم الجمعة ذهب الى المسجد الجامع لتأدية الصلاة فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر اسماء الله الحسنى:

اساميا لم تزده معرفة   وانما لذة ذكرناها

فرجع الى مدينة السلام اذ علم انه على حنث ما تنقل وجاب!

فلو عرف ان الملك سيخطئه لعاش للشعر، واعتكف في مغارة الوحدة مقسما كل مظاهر الحياة واسرارها تقاسيم شعرية وراضيا بالقسمة! كان ابو الطيب ذا طبع خصب فلم يستغل شعره لشعره، بل اتخذه قنطرة لشيء آخر: حياته، انسانيته، غروره، أثرته، ميله للسلطان، حبه للابيض والاصفر، فبقى شعره مرءاة صافية لمحاولاته، ومرءاة محقوقفة لاغراضه، فهو للاحياء، اما من هم فوق الاحياء فلا!

هل هذا يقدح في شاعرية هذا الفحل؟ او يقصر من عمر خلوده؟ كلا. ان المتنبى على الرغم من استغلاله للشعر لم ينتقم الشعر منه بل طاوعه ولان له، فخلف بيننا قصائد تحكي الحياة فى مرارتها وعذوبتها. وهي فى لساننا كما كانت فى لسانه شاهد عدل على تبريزه ونبوغه.

عبد الخالق الطريس

سواء صحت هذه القصة أم لم تصح فانها ـ على كل حال ـ تعبر لكم عن حالة واقعة لا تزيدها الايام الا ثبوتا. فأي بلاد لا تعرف المتنبى ؟ وأي أدب من آداب الامم العربية ومن يديها لم يتأثر فى هذه الالف الماضية بشعر أبى الطيب وما فيه من ابداع ؟ لقد خلف المتنبى ثروة عظيمة فذة اشتغل الناس بها وانتفعوا، وتزاحموا حولها واختلفوا، والآن وقد وقفنا على رأس الالف الثانية نحيى تلك الروح التى ملأت الزمان ولم يقو عليها، وشغلت أهله دون أن تبلى جدتها، فمن الواجب علينا ان ننظر نظرة خاصة فى حظ هذه البلاد المغربية من ذلك التراث العظيم ؟

ان الفتح الفكرى الذى قام به المسلمون لبلاد المغرب (الشمال الافريقي وبلاد الاندلس) اورث ابناء هذه الارض حبا فى النور المنبثق من بلاد النبوة والوحي، وتطلعا لكل ما يرد من ذلك المهد الذى يعتبر بحق أم الوطن ومصدر هواه. ثم ان اللسان الذى تشرف بتبليغ الرسالة العربية والدعوة اليها قد أصبح لسان هذه الامة الجديد، واداة الإعراب عن ما يختلج بضميرها من جد وخيال، فليس غريبا أن يصبح أدبه فى كل ارض وفى كل محلة هو أدبها، ومنه مادة حياتها الفكرية ومتعتها الروحية، وليس غريبا أن تهتم هذه الامة بدراسته وتحصيل ملكة الذوق فيه، ثم ليس غريبا عليها وقد اختلطت بالوافدين اليها من مختلف البلاد العربية أن تنبغ فى هذا اللسان وتطبع ادبه بطابعها المستمد من الارض ومن الروح، ثم يصبح لها من الحق فى نقد مقاييسه والنظر فى أساليب النبغاء فيه، ما لغيرها من العشائر التى شبت عليه ورجعت فى اصدارها وايرادها اليه. وبعد هذا وذاك فليس عجيبا ان تجمعها مع أفذاذه هذه الرابطة المتينة فتتصل بهم وتاخذ منهم وياخذوا منها، ذلك ما حصل فى

عدة مناسبات، وذلك ما وقع مع شاعر العربية الكبير ابى الطيب المتنبى:

لم ينبه نابغة العراق فى القريض، حتى طبق شعره الخافقين. وسار مسير الشمس من مشرقها الى المغرب. وحتى تحدث الناس فى القيروان ثم فى الاندلس وفاس وغيرهما من الجهات المغربية بأخباره، وتناشدوا نفيس اشعاره، وتطلعوا للرحلة اليه والاتصال به والاخذ عنه، ثم لأن يكون لهم فى هذا القسم من العالم العربي «متنبئون» كما للشرق «متنبئى» ليؤكدوا عظيم تعلقهم بهذه الثقافة التى دانوا بها واخلصوا الحب لها، وسمع المتنبى بخبرهم وعرف فيما عرفه من حال أمته أن هنالك اخوانا وراء البحر يقرضون الشعر كما يقرض، ويبنون من الحضارة المختلفة الفنون ما يضاهون به دمشق وبغداد، فتطلع ايضا الى لقائهم وسماع اشعارهم. واحب أن يكون له فى هذه الجهة رواة كما له فى غيرها، ليحقق تنبؤه بمسير شعره، وتكهنه باشتغال الخلق كافة به.

روى ابن خاقان (المطمح ص 159) ان الخطيب أبا الوليد بن عيال حج فلما انصرف الى مصر تطلع الى لقاء المتنبى واستشرف ورأى ان اقياه فائدة يكتسبها، وحلة فخر له يحتسبها، فصار اليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلا، ثم قال لهم انشدنى لمليح الاندلس يعنى ابن عبد ربه فانشده:

يا لؤلؤاً يسبى العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ابصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رفيقا

فلما أكمل انشادها استعادها منه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تاتيك العراق

حبوا: وهاكذا كان المتنبي يتصل بابناء المغرب ويطارحهم النشيد ويناديهم البيان، فيحملون اخباره لبلادهم، وينشدون اشعاره لتلامذتهم، ويشتغل هؤلاء بدورهم بالنظر في شعر هذا الذي يكسو على نفسه رداء التقديس والنبوة، ويبحثون عن سر هذا الاعجاز الذي يتحدى به ويريد ان يكون حجة له أمام الناس، وهنالك تختلف انظارهم وتفترق آراؤهم ويكون حظهم من آثار ابي الطيب حظ الذين صاحبوه وسمعوا قوله بين معجب ومنتقد، ومصدق ومكذب، ويكون فيمن يخوض هذا الميدان شعراء اقليميون نبه اسمهم في هذه الاوساط، فعز عليهم ان يغلبهم على الذكر اسم غريب لولد سقاء في الكوفة، فيتبعون عورات هذا الشاعر ويبوحون بها. ويحملها الحجيج الى المتنبي، فتكون مصدر المناقضات بين شاعر المشرق وشعراء المغرب، وتتمخض هذه المناقضات عن نهضة ادبية تجر الى العناية بشعر المتنبي ودراسة مناهجه وموازنتها مع امامي الشعر البحتري وابي تمام، وتتكون حول ذلك حزبية بين انصار اللفظ وانصار المعنى، لكل منها مدرسة خاصة وتلامذة مخصوصون. ثم يوازن ذلك كله بأبطال الشعر الوطنيين، فيقال هذا اشبه بابي تمام والبحتري وذلك اشبه بابي الطيب المتنبي ويسري ذلك الى العامة وأصحاب الازجال، فيتذوقون تلك المناهج المختلفة، ويتخذون منها مقاييس يعرضون عليها نبغاءهم الشعبيين، وهكذا يظهر اثر المتنبي في أدبنا المغربي واضحا جليا من هذا العرض الموجز الذي نحاول تفصيله في هذا البحث.

محمد علال الفاسي

كنا نود ان يتمتع قراء هذا الجزء بقراءة خلاصة مستوفاة من البحث الطريف الذي قام به زميلنا الاستاذ علال الفاسي عن «اثر المتنبي في الادب المغربي» ولكن كثرة الاشغال جعلت الزميل لا يتمكن من تحقيق هذه الرغبة الآن، ونحن نلفت الانظار الى طرافة هذا البحث واهميته وندعو قراء المغرب الجديد الى مطالعته بإمعان لاول ظهوره في عالم الطباعة - المغرب الجديد -

الشاعر العربي المتنبي والمغرب الاسلامي

(عن مجلة الابحاث الاسلامية سنة 1929 مجلد 1)

- بقلم المستعرب المسيو بلاشير - تعريب الاستاذ محمد بن الحسن الوزاني

كنت أود اخراج بحث مستفيض من كتابات المستعربين الغربيين عن المتنبي، وبعد التنقيب والاستطلاع تبين لي ان المادة موفورة خصوصا باللغتين الالمانية والايطالية، وهما لغتان لا إلمام لي بهما، غير انني صممت على المضي في عزمي الاول مؤملا بلوغ المرام بالاستعانة بمن يستطيع افادتي في اللغتين المذكورتين.

وفي اثناء ذلك حدثت ظروف سياسية اكرهتني على تأجيل العمل الادبي - وأستسمح القراء في الاشارة هنا بكل طمأنينة ومنتهى التواضع الى انني سياسي اكثر مني أديبا، واذا اقدمت احيانا على الاشتغال بالموضوعات الادبية، فلإقدامي هذا سببان جوهريان: أولا شدة رغبتي في ان اجعل في متناول الذين لا معرفة لهم بغير العربية من ابناء الوطن افيد ما اعثر عليه من البحوث التي يكتبها المستعربون عن كل ما يتصل بقوميتنا من حيث الدين واللغة والمعارف العامة. ثانيا مشاركتي بنصيب في سد الفراغ الذي نشأ عن تقصير المتأدبين عندنا في اسداء الخدمة الواجبة للثقافة المغربية التي يعمل «المغرب الجديد» في سبيلها، والتي تمس حاجتها الكبرى الى التضافر المستمر من جميع حملة الاقلام الذين لا زال كثيرهم غافلين عن تقدير المسؤولية المعنوية التي تفرضها عليهم مصلحة الوطن قبل سواهم.

وقد كنت اترقب فسحة تمكنني من تناول البحث الذي كان في

الامل انجازه، فلم أظفر بتلك الفسحة المبتغاة، ولما بلغني «إنذار» رئيس التحرير النشيط بضيق الوقت، رأيت انه لم يبق مجال لاطالة الانتظار، وانه ليس لى عن التلبية منتدح، فاعتزمت الاقتصار على تعريب اهم ما وجدته مكتوبا بالفرنسية، وهو بحث العلامة المستعرب المسيو بلاشير (Blachère) الذى كان استاذا بمعهد الدراسات المغربية العليا برباط الفتح والذى يدرس اليوم فى المدرسة القومية للغات الشرقية الحية بباريس، وقد نشر هذا البحث فى «مجلة الابحاث الاسلامية» التى يصدرها المستشرق الكبير المسيو لويس ماسينيون، الاستاذ بكلية فرنسا بباريس وعضو مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة، ومما قوى رغبتي في نقل البحث المذكور علاقته الوثيقة بالثقافة المغربية. ورغبة فى الافادة رأيت ان اضيف اليه قائمة المصادر التى يمكن اعتمادها من اجل الوقوف على مبلغ عناية المستشرقين بابى الطيب المتنبى والى القراء بحث المسيو بلاشير :

«قلما يوجد فى العهد الاسلامي بين شعراء الشرق العربي الذين فرضوا شخصيتهم على أنظار العالم المغربي الاسلامي من وازوا في الشهرة والنباهة أبا الطيب الكندى الملقب بالمتنبى، فبعد مضي نصف قرن على وفاة هذا الشاعر نلفى ان العناية بدرس منتوجاته الادبية كانت امرا واقعا فى افريقية[1] وبلاد الاندلس، وقد ظل الناس، طيلة القرون المتعاقبة، مهتمين بشرح تلك المنتوجات ومحاكاتها، وطبعا بتنحلها كذلك، والى الساعة الراهنة لا يزال هذا الشاعر فى المغرب الاقصى من اكثر الشعراء ذكرا وترديدا عند ادباء لا يبعد ان يتمثل لابصارهم كانه المشخص للشعر كله.

(1) كان هذا اللفظ يطلق في الماضى على الناحية الشرقية من الشمال الافريقى وهى اوسع من القطر التونسي فى حدوده الحالية

وان هذا الاقبال الذى دام منذ أكثر من الف سنة ليفجؤنا خصوصا اذا انتبهنا للاهوية التى تفصل بين الغفلة الدينية (indifférentiome religieux) عند المتنبى وورعة المسلمين المثقفين في اسبانيا وبلاد المغرب. وقد يبدر الفكر اول واهلة الى البحث عن سبب ذلك في حياة الشاعر نفسها.

وبعد استعراض موجز لمراحل حياة المتنبى يلاحظ صاحب هذا البحث أن عصر المتنبى كان عصرا ذهبيا لجميع الذين يمرفون مسك الاقلام، فالمقدرة الشعرية التى يحسها ابو الطيب في نفسه لما ذا لا تقوده، ككثير غيره، نحو المجد والثراء؟ لهذا فانه، كسائر الرجال الذين يكتب لهم القيام بعظيم الاشياء، يثق بنفسه ويلقى بها، فى غير تردد، فى معترك مهنة لا يلقى فيه الا انواع الخيبة والحبوط، وبعد ما يخوض المعركة مدة سنتين او ثلاث يولى وجهه فى النهاية نحو الشدة، فيطالبها بتحقيق أحلامه في الغلبة والسيادة. ثم يقول الكاتب المستعرب: لا شك ان حياة مضطربة كحياة المتنبى، تقبل الناحية الخيالية فيها كل التمطيطات القصصية، قد راقت الادباء المسلمين فى المغرب المغرمين بكل طريف كغيرهم من الرجال. ولذلك فان هذه الحياة قد ساعدت على الفات النظر الى آثار الرجل الذى خاض معمعتها، على ان تلك الحياة لاتكفى لبيان الشهرة الشعبية النسبية التى احرزت عليها تلك الآثار... ونهاية الامر انه يجب الالتفات الى هذه الآثار نفسها لالتماس اسباب النجاح فيها.

وديوان المتنبى موسوم، في جملته، بعلامة لا يعفوها الزمان هي علامة البيئة التى نشأ فيها، ويندر فيه الاسلوب الغنائى، على انه لا يخلو منه، اما المعنى فانه يتخذ في الغالب شكل الحكمة، وهذا الشكل يلبس حلة زائفة من العمق وبعد الغور، ولهذا كون الشرقيون فكرا من

رجل كل حذقه وخبرته في حياكة عادي القول. على اننا نعترف بانه يجيد الصياغة ويحكم الصناعة، ذلك بان رجل الفن في شخصية المتنبى معدود فى الصف الاول من القوة والعظمة. والمستشرقون يعيبون عليه، حقا، تكلفه، وهم ينسون على وجه العموم ان المتنبى لم ينظم الشعر من اجلهم، ولكن من اجل جمهور يروقه بنفس الناحيتين اللتين تنفران منه غير ذلك الجمهور، وهما تنميق الاسلوب واستعمال الاستعارات. ولهذا يلوح لنا انه لا مراء ولا جدال فى ان آثار المتنبى، التى تفتحت ازهارها في بيئة كان الشعر الرسمي وشعر المجالس يكيفان فيها كل الشعر، لا يمكن الولوع بها عن شدة اعجاب وحماس، ومناقشة قيمتها بكل رغبة وانشغاف الا من لدن جمهور يخلق بتجدد واستمرار المحيط الذى نشأت فيه تلك الآثار.

وانه لمن غريب الصدف - وهي قلما تفاجىء من يعلم تماثل المذاهب الادبية فى العالم الاسلامى الى أوائل القرن الماضى - أن يكون هذا الوسط المساعد على النجاح قد ظفرت به اشعار المتنبى فى المغرب مرات عديدة ابتداء من ظهورها وذلك فى بلاد الاندلس وفى إفريقية أول الامر، ثم فى المغرب الاقصى بعد ذاك.

1 - افريقية ففي عهد الخليفة الفاطمي المعز (341-365_952-975) اى فى اواخر حياة ابى الطيب، أصبحت القيروان مركزا فكريا لامعا، ولما نقل المعز قاعدة مملكته الى مصر قام ولاة البربر الذين عهد اليهم بادارة افريقية، باسمه وباسم خلفائه من بعده، ببذل الجهود من اجل ان يحفظوا للقيروان منزلتها الرفيعة كعاصمة فكرية فى البلاد البربرية، ونكاد لا نحس الحاجة الى القول بان الروابط المحكمة كانت موجودة اذ ذاك بين القاهرة وافريقية، ولم يلبث ديوان المتنبى ان أصبح معروفا فى هذه

الولاية الاخيرة، وقد تناول النقاش قيمته كما كان شانه وقتئذ في الاوساط المصرية.

ففي اوائل القرن الخامس قام عالم لغوى هو ابو عبد الله محمد ابن جعفر القزاز المتوفي بالقيروان في سنة 412هـ1021م فالف كتابا سماه «كتاب ما اخذ على المتنبى»[1]، وهذا الكتاب لم يصلنا، لكن عنوانه يكفى الاخبار عن جنسه وشكيلته، فلعله كان نقدا مرا شديدا من أضراب ذلك النقد الذى اكثر من التأليف فيه خصوم الشاعر في بلاد المشرق، والذى احصيت فيه بكيفية مختلة مشوهة السرقات والانتحالات الحقيقية او المفروضة وكذلك التراكيب الفاسدة والمبالغات والصور التى بلغت الشطط في الوقاحة.

ويظهر ان استاذا كهذا لا بد ان يكون اوجد تلامذة مربين على كراهة ابى الطيب، غير ان الواقع بخلاف هذا، فان اشهر تلاميذه، وهو ابن رشيق المتوفى بصقلية سنة 457هـ1084م، كان على عكس ذلك موفور الاعجاب بمداح سيف الدولة، وهذا امر لا يعسر إدراكه، فان ابن رشيق لم يكن عالما متضلعا فقط، بل كان كذلك شاعرا من شعراء الحاشية الملكية، يعيش بعطايا أمير القيروان المعز بن باديس، فهو يستطيع أحسن من غيره ان يقدر اشعار المتنبى، وثروتها اللفظية، وكذلك تنوع وفجاءة (inattendu) الصور والتشبيهات التي تشتمل عليها قطعه الشعرية، وحقا ان ابن رشيق لم يفرد لهذا الشاعر بحثا خاصا، لكنه كثيرا ما تسنح له الفرص في «مدونته» (traité) المشهورة عن الشعر العربي المسماة بالعمدة في صناعة الشعر ونقده، فيثبت نوادر عن ابى الطيب ويستشهد

(1) راجع ارشاد الاريب لياقوت، 4، 468-471

بابيات من شعره. وحقيقة انه يفعل هذا، أحيانا، بقصد الاشارة الى معايبه[1] اما فى الغالب فانه يقدم على ذلك اظهارا لمحاسنه، وقد كتب عنه مرتين[2] قائلا ان ابا الطيب هو خاتم الشعراء الحقيقيين بلا جدال، فقد بلغ الذروة فى العظمة حتى اصبح جميع المعاصرين له ـ ولو كانوا من الجهابذة الاعلام ـ اصغر منه شأوا وقدرا[3]، وان مدحا كهذا لم يثر في زمنه اي اعتراض ولا مخالفة ليفصح لنا، بافاضة واسهاب، عن الاذواق الادبية في القيروان مدة القرن الخامس.

2 = الاندلس أما اذا انتقلنا للاندلس فانا نجد فيها محيطا أنسب وأصلح للمتنبى ففى عهد خليفتي قرطبة ـ عبد الرحمان الثالث والحكم الثانى ـ أصبحت عاصمة اسبانيا المسلمة مركزا فكريا يشع نوره فيبهر الابصار ويسحر الالباب، ولما سقطت الخلافة في اوائل القرن الخامس (القرن الحادى عشر) كان هذا الحادث أبعد الاشياء ايقافا وعرقلة الحركة الفنية؛ بل انه ساعد على توزعها وانتشارها، فقد نشأت الولايات في كثير من الاصقاع والجهات وتوجهت الهمم في الدوائر الملكية القطرية الى محاكاة التقاليد والاعراف التى كن عليها الخلفاء الامويون الراحلون، محاكاة كانت في الغالب تكلل بالفوز والفلاح، وقد كثر عداد أصحاب الاقلام والنظامين عند العباديين في اشبيلية، والافطسيين في بطليوس والزيريين في غرناطة، والنونيين فى طليطلة وعند غيرهم من الدويلات

---

(1) - راجع العمدة - طبع القاهرة سنة 1325هـ، ص 11، 51، 52، 60، 68 ثم 133 - 134 - ورغما عن هذا فان الانسان يشعر شعورا قويا بالتشيع المستتر عند ابن رشيق الذى يجنح الى الانسياب دون ان يتعثر بمعايب المتنبى

(2) راجع المصدر المذكور 1 ص 56 و 163

(3) راجعه ايضا 1 ص 64

المحلية، واما المنتوجات الشعرية فقد كانت ضخمة وغير ناضجة، كما كانت الموضوعات الرسمية هي الحائزة على ميزة الشرف العظيم، ويستحيل على الانسان ان يتخيل ميدانا أحسن اختيارا واصطفاء لاشهار المتنبى وبث المعرفة بآثاره. أما ديوان ابى الطيب فانه بلغ اسبانيا مباشرة عن طريق المشرق، لا بواسطة افريقية كما يمكن ترقب ذلك بطريق الاستنتاج. ففى اثناء الرحلة التى قام بها الى المشرق تاجر اندلسي يدعى ابن الاشح[1] - وهو زيادة على ذلك أديب رقيق - اجتمع في القاهرة العتيقة «الفسطاط» بالمتنبى الذى كان اذ ذاك مداح الوالى كافور الاخشيدي، فسمع من الشاعر نفسه انشاد قصائد رسمت في مخيلته اثرا بليغا مع شرحها، ولما عاد للمغرب استوطن قرطبة ثم اخذ الى ان توفى سنة 393هـ 1002م يشرح للجمهور جميع ما يملكه من آثار شاعره المختار.

وفي الوقت نفسه رجع اندلسي آخر هو ابن العريف[2] الى وطنه بعد ان أقام في مصر عدة سنوات، وكان كذلك عارفا بأشعار أبى الطيب ويمكن الشك فى كونه قد حمل معه الى اسبانيا جميع تلك الاشعار، لان آخرها تاريخا - وهي الموجهة بالاخص الى السلطان عضد الدولة - كانت ما تزال لم تصل الى مصر وقت سفر ابن العريف، واقتداء بمواطنه ابن الاشح - بل انه زاد عليه اذ كان شاعرا في سويعاته وطوع نوازعه - قد أخذ ابن العريف على عاتقه أن يعرف الناس بالمتنبى، ولما حانت وفاته سنة 390 هـ 999م كان في استطاعته أن يتمدح بكونه نال الظفر فى مأموريته، فقد أصبح اسم الشاعر الذى كان شادي سيف الدولة جاريا ذكره على سائر الالسنة، وكلما أريد اذ ذاك الثناء على محاسن شاعر قيل

(1) راجع تاريخ الاندلس رقم 453 لابن الفرضى.
(2) راجع المصدر المذكور رقم 554.

عنه : انه متنبى المغرب[1]، وقلما أدرك مجد أدبي أكثر من هذه السرعة فى مسيره.

وحيث ان الصعوبات الكثيرة الموجودة في اشعار أبى الطيب ظلت عقبة فى سبيل فريق كبير من القراء، فقد كثر عدد العلماء الذين جعلوا من تلك الاشعار موضوع تعليمهم الادبي الشفوي، وربمالم يكونوا كلهم ذوى مقدرة تؤهلهم للقيام بمهمتهم، ولهذا اصبحت الحاجة ماسة الى شرح مدون، أما فى المشرق فالشروح كثيرة، لكنها ما تزال لم تصل الى المغرب، ولم يلبث هذا الفراغ أن وجد من يضطلع بتلافيه. والى احد علماء قرطبة ـ وهو أبو القاسم ابراهيم بن الافليلي[2] المتوفى سنة 441هـ 1049م ـ يرجع الفضل في كونه أول من قام في المغرب بتأليف شرح عن المتنبى، ويظهر أن هذا الرجل كان جديرا بالقيام بالعمل المذكور، فهو لم يكن عارفا فقط بجميع فروع الآداب، بل كان يقدر كثيرا شعر الملوك، وهذا، كما اسلفنا بيانه، أمر جوهري اذ اريد تذوق آثار ابى الطيب، وزيادة على ما ذكر فان تلك الشخصية كانت متمسكة بآراء دينية لها من الحرية نصيب جعلها لا تصطدم مع «الغفلة الدينية» التى كان عليها المتنبى.

وقد بلغنا عمل ابراهيم الافليلي، لكنه لا يزال غير مبرز، فان القسم الاول منه موجود في برلين[3]، وتملك مكتبة الدولة برباط الفتح

(1) راجع تاريخ الموحدين لعبد الواحد المراكشي.

(2) راجع فيما يخص هذه الشخصية كتاب الصلة لابن بشكوال رقم 195 ـ ثم ارشاد الاريب لياقوت ـ 1 ـ 316 ـ 318.

(3) راجع للمؤلف Ahlwardt :
Die Handschriften - Verzeichnisseder Konig. Bibliothek zu Berlin, VI, n°. 7569.

القسم الثاني منه، وهو مخطوط جميل يرجع الى القرن السادس عشر[1] ويحتوى على جميع القصائد المهداة الى سيف الدولة، ولاجل ان يكون تاما وجب ان يشتمل هذا الشرح على قسم ثالث يضم آخر القصائد التى نظمت بين 346 هـ 956 م و355 هـ 965 م وهي السنة التى قتل فيها الشاعر، ومن سوء الحظ انه لا يوجد لهذا القسم أثر، وربما لم يبرز للوجود بالكلية اذا كان ابن الافليلي، كما يجوز لنا ان نفرضه، قد اقتصر فى عمله على انتساخ الشرح الشفوى لابن العريف الذى تلمذهو له. وعند اول اختبار يظهر عمل هذا العالم الاندلسي كانه شديد الاختلاف عن المؤلفات الشرقية التى هي من جنس واحد، فبعد مدخل وجيز في الظروف التى نظمت فيها كل قصيدة، تثبت هذه القصيدة مع تحليل مختصر لكل بيت من ابياتها، فابن الافليلي في عمله مدرس اكثر منه شارحا حقيقيا، وهو قلما يبدى رأيا في جمال العبارة، ويحس الانسان عنده تشيعا يجعل شخصيته منعدمة باستمرار أمام المؤلف الذى يفسر كلامه، فنحن بعيدون عن الكتابات المستفيضة في النحو واللغة والآداب التى عودنا اياها شراح المتنبى الآخرون.

والظاهر ان آثار ابن الافليلي قد احرزت على اقبال عظيم وصيت مديد ليس في اسبانيا فحسب، بل حتى في بلاد المشرق[2] اما في بلاده نفسها، فيلوح انه كان الباعث على الابحاث «المتنبية»، وقد قام احد مواطنيه وهو اللغوى المرسي[3] الشهير ابن صيدح المتوفى سنة 458هـ 1066 م.. وذلك بعده بأقل من ثلاثين سنة ـ فألف بدوره شرحا ما

(1) راجع المخطوطات العربية فى الرباط لمؤلفه ليفي بروفنصال، ص 109، رقم 324

(2) انظر وفيات الاعيان لابن خلكان - طبع القاهرة سنة 1310 ج 1. ص 12

(3) نسبة الى مرسية احدى مدن اسبانيا

يزال مخطوطا[1] وأطلق عليه اسما ذا مغزى بين، وهو «شرح مشكل ابيات المتنبى» وينسب كتاب من جنسه، ولكن باطلا، إلى عالم بطليوس المعروف باسم السيد البطليوسي المتوفى سنة 521هـ 1127م[2]

3 ـ المغرب الاقصى وفى هذا العصر نفسه يقوم المهدى بن تومرت في المغرب الاقصى داعيا الى مذهب «الموحدين»، وانه لاختلال غريب في الافكار والافعال ان تظهر هذه الشخصية المتورعة اعجابا عظيما بآثار «دنيوية» كآثار ابى الطيب[3].

فالى أية شهرة يجب التطلع عند ما يتناسى خلفاء عبد المؤمن مذاهب «الاستاذ» ويصبحون أمراء مهتمين بعظمتهم اكثر منهم برسالتهم كمصلحين في الاسلام؟ ان اسبانيا التى ظلت مثالا للمغرب الاقصى، لم تتجرد عن شدة ولوعها بالمتنبى، وان طائفة من الفقهاء المعظمين كانوا يحفظون اشعاره عن ظهر قلب ويدرسونها لابنائهم[4]، كما كان عدد من القواد المثقفين فى قصر الخلفاء ينشدون شعر المتنبى بكل تحمس وجذل[5]، وربما كان من المستغرب ان لا يشارك بنصيبهم فى ذلك رجال العلم الضليع الرزين (froide érudition)، وفعلا لم يلبثوا ان نزلوا الى الميدان في شخصية العالم النحوي ابى موسى عيسى بن عبد العزيز المنتسب الى القبيلة البربرية الجزولية والمتوفى في مدينة مراكش الحمراء

(1) يوجد هذا المخطوط فى القاهرة - راجع فهرست الكتب بالكتبخانة الخديوية 4، ص 273

(2) يذكره ابن خلكان (ج 1 ص 265) ولكن بالسماع فقط. اما ابن بشكوال (ج 1 ص 287، رقم 639) فلا يتحدث عنه، لكنه يشير الى عنوان شرح لديوان ابى العلاء المعري، وهذا هو السبب فى هذا الاختلاط والالتباس.

(3) راجع كتاب الاستقصا لمؤلفه الناصري السلوي - ج 1، ص 187

(4) راجع كتاب عبد الواحد المراكشي

(5) راجع المصدر المذكور - ص 251 ـ 262.

حوالى سنة 610 ه 1213م [1] غير ان هـذا العالم لم يأنس من نفسه الاقدام على القيام بعمل طريف، فقد اقتصر ـ حسب قاعدة أصبحت عزيزة على مواطنيه ـ على اختصار شرح شرقي هو شرح ابن جني المتوفى سنة 292ه 1002م. وبما ان هـذه المجموعة المنتخبة قـد ضاعت فانه من المستحيل ان تعرف روحها بكل دقة وتيقن، غير ان مجرد التفكير فى اختصار آثار ابن جني وبالاخص النحوية منها، وذلك ايثارا لها على سواها، ربما يكون فيه كشف عن نوايا عيسى بن عبد العزيز.

ولم تشاهد العصور التى أعقبت سقوط الموحدين ظهور أي مؤلف جديد عن ديوان ابى الطيب، وهـل ينبغي ان يعزى سبب هذا الى تقلص نفوذه؟ الظاهر ان هذا غير صحيح، ففى عهد بنى مرين وكذلك فى آخر ايام العرب باسبانيا، كان شعر الملوك كثير الروجان، موفور العزة، بحيث لم يكن من الممكن ان يكسف نور المجد الذى ادركه شاعر هو المشخص لذاك النوع فى مسرح الشعر.

ومهما يكن من الامر، فانه يجب ان ننتقل الى عصر السلطان المنصور السعدي 986 ـ 1012ه ـ 1572 ـ 1602م لكي نلفي دراسة جـديـدة وقع تخصيصها للمتنبى، فقد ألف احد كتاب الدولة في قصر ذلك الملك وهو عبد العزيز الفشتالي [2] المتوفى سنة 1031 ه 1621م كتيبا سماه «مقدمة لترتيب ديوان المتنبى» وهذا الكتيب مفقود، لكن وجوده فى عصر كان فيه للشعر الرسمي بـالمغرب الاقصى ازدهار فوق ما يتصور لا يدع أي شك في العطف الذى ظفر به المتنبى عند الادباء والمفكرين.

(1) راجع ابن خلكان ج 1، ص 394 ـ 395

(2) راجع كتاب مؤرخى الشرفاء لمؤلفه ليفي بروفنصال طبع باريس ـ سنة 1922، ص 59، 92، 97 مع التعليق الثاني.

والظاهر انه لم يكتب اقل شيء عن المتنبى فى المغرب الاقصى بعد عبد العزيز الفشتالي، غير انه بقى الاقبال على دراسته، حتى اصبح «مدرسيا»، وفي القرن السابع عشر كان الشيخ عبد القادر الفاسي المتوفى سنة 1091هـ يحفظ ديوانه عن ظهر قلب مع المعلقات الجاهلية[1]، ويقال انه كان فى امكان الفقيه الورع ابى علي اليوسي المتوفى سنة 1102هـ 1691 م ان يملي كل ديوان المتنبى[2] من ذاكرته.

فهذا الرضى من أمثال هاتين الشخصيتين الرزينتين المتعففتين عن آلاداب الدنية، يكفى لان يشخص لنا قيمة المتنبى في أعين أدباء أكثر تعلقا بالدنيويات، كما انه يبين عدم احتذار المغاربة المتورعين من شاعر تظهر اشعاره في الغالب بمسحة النفور من الدين، وحقا ان ذلك الرضى لا يعطى العلة في الاعجاب بشكل تلك الاشعار، فالعلة في هذا لابد من البحث عنها في الذوق الدى يقبل في المغرب الاقصى على الاسلوب الزاهر المنمق، وعلى الاستعارة المكلفة الى درجة الافراط في الخيال، وعلى استعمال القواعد الكلامية التى تبلغ اقصى الحدود من حيث التصنع والتكلف، ولهذا يمكننا ان نراهن على ان آثار المتنبى ستظل زمنا طويلا ظافرة في هذه البلاد بالانصار والمعجبين. ر. بلاشير

(تعريب محمد حسن الوزاني)

(1) راجع لابن شنب بحثه فى الاشخاص الواردين فى اجازة الشيخ عبد القادر الفاسي، وذلك فى اعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين ص 29.
(2) راجع كتاب ليفي بروفنصال المذكور ايضا ص 270.

ملاحظة لم تصلنا القائمة التى وعد بها زميلنا الاستاذ الوزاني في طليعة تعريب هذا البحث وحضرة الاستاذ لابد ان يفي بوعده لقرائه متى وجد متسعا في الوقت، وموعدنا بنشر هذه القائمة المنتظرة العدد الاول من السنة الثانية بحول الله. «المغرب الجديد»

المتنبى شاعر الفردية والانانية

لا أبالغ اذا قلت إننى كنت من اشد الناس حماسا لاقامة ذكرى المتنبى فى عالم العروبة، فقد واصلت الدعوة الى ذكراه فى «المغرب الجديد» ودافعت عنها دفاعا مجيدا بين زملاءى هنا وهناك، حتى اقيمت له حفلات مجيدة فى فاس وتطوان، وحتى شارك فى ذكراه فريق غير قليل من حملة الاقلام فى البلاد مشاركة جديرة بالتقدير والاعتبار. واهم شيء كان يدفعني الى هذا العمل، ايمانى بان «الوطن المغربي» جزء لا يتجزأ من عالم العروبة، فيجب ان يشارك فى كل مظهر من مظاهر الوحدة الفكرية العربية، واقتناعى بان فكرة الذكرى فكرة مغربية صالحة، فيجب تأييدها والدفاع عنها أمام خصومها، واعتقادى بان مرور عشرة قرون على شاعر بليغ فى لغة من اللغات حادث خطير من الوجهة الادبية العامة، فيجب الفات النظر اليه في لغة العرب بكل ما يستطاع من وسائل الالفات، حتى تومن ناشئة العالم العربي - وفى طليعتها الناشئة المغربية - أن العائلة التى ننتمى اليها بثقافتنا وعاطفتنا وأدبنا عائلة عريقة فى الحضارة، أصيلة فى المجد. وواضح ان ميراث الشعوب الادبي يثقل ميزانها ويغلى قيمتها عند ابنائها، ثم عند اصدقائها واعدائها.

ورغبة فى ان اكتب شيئا عن المتنبى بمناسبة ذكراه الالفية لقراءى الاعزاء - كما تقضى بذلك مهنة التحرير - واملا فى ان يكون ما اكتبه بعيدا عن التحيز والهوى، حتى لا أحسب من «انصار المتنبى ولا من خصومه»، خصصت لقراءة ديوانه - الذى هو أثره الباقي الوحيد - وقتا ثمينا من اعز اوقاتى واقبلت عليه بشوق عظيم وعناية زائدة، فقرأت الديوان من أوله الى اخره بيتا بيتا وقصيدة قصيدة، قراءة انتباه وامعان

واستقراء، بقدر الوسع وحسبما في الامكان، وانتهيت الى نتيجة لا ترضى أنصاره تماما ولا ترضى خصومه تماما، بل إنها تثير قلق الفريقين، وتسخط كلتا الطائفتين، وهذا هو شأن المحايدين، في مثل هذه الميادين، وليس علي حرج اذا اعلنت هنا ما وصل اليه بحثي، ما دمت لا استطيع ان افكر بعقول الناس ولا أن أحس بقلوبهم!

لقد انتهيت من قراءة الديوان الى ان المتنبي «شاعر» جزل التعبير قوى التصوير، فياض الشاعرية، مهتاج الحساسية، وهو عندى في طليعة شعراء العربية المبرزين، من القدماء والمحدثين، ولن أوافق خصومه على نفي شاعريته من اجل عيوب شكلية لا تتصل بجوهر الشعر وروحه، او عيوب طارئة خارجة عن طوقه وارادته، فالمتنبي عندى قبل ان يكون شاعرا هو انسان تعرض له كل عوارض البشر، بمعنى انه يكون احيانا صافي الذهن، نير البصيرة، نافذ الفكر، بعيد النظر، مشرق الخيال، فياتى بالشعر المسبوك المحبوك المتسلسل الواضح، ويكون احيانا جامد القريحة كدر النفس، مظلمة زوايا عقله، وحنايا قلبه، فياتى بالنظم المتقلقل المفكك الركيك المشوش، والشعر مرآة الاحساس الداخلي تصفو اذا صفا وتكدر اذا كدر، واذا اردنا أن نعرف من شخص مدى استعداده فلننتظر أحسن لحظاته التى يكون فيها بادي الشخصية، عاري الذاتية «فاقدا للموانع مستوفيا للشروط» ولنلاحظ وننتظ أقصى ما يستطيع الوصول اليه من كمال، ولنتخذ من ذلك المعيار الفاصل لشخصيته وعبقريته، ولا شك أننا اذا قسنا شاعرية المتنبي بهذا المقياس، وبنينا الحكم فيها على هذا الاساس، فسيخرج المتنبي شاعرا من فحول الشعراء، لا شك في ذلك ولا مراء!

غير ان المتنبي - حسبما قرأته في ديوانه - لم يتخط بشاعريته حدود ابواب ثلاثة، هي المدح والهجاء والرثاء، ففي الديوان قصائد مدح في: 1 ابن عبدالوهاب - 2 احمد بن عمران (ابى ايوب) - 3 احمد بن الحسين القاضى المالكي (ابى الفرج) - 4 احمد بن عبد الله بن الحسين الانطاكي القاضي (ابى الفضل) - 5 أبى عبادة بن يحيى البحتري 6 بدر بن عمار بن اسماعيل الاسدي الطبرستاني (ابى الحسين) - 7 جعفر بن كيغلغ - 8 دلير بن لشكروز (ابى الفوارس) - 9 هارون بن عبدالعزيز الاوراجي الكاتب المتصوف (ابى علي) - 10 الحسين بن علي الهمداني 11 الحسين بن عبد الله بن طغج (ابى محمد) - 12 الحسين بن علي بن الحسن العدوي (أبى العشائر) - 13 الحسين بن اسحاق التنوخي - 14 طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي (ابى القاسم) - 15 كافور الاخشيدي 16 مساور بن محمد الرومي - 17 محمد بن عبد الله بن محمد الخطيب الخصيبي قاضي انطاكية (أبى عبد الله) - 18 محمد بن الحسين ابن العميد الوزير (ابى الفضل) - 19 محمد بن زريق الطرسوسي - 20 محمد بن عبيد الله العلوي - 21 المغيث بن علي بن بشر العجلي - 22 عبيد الله بن خراسان الطرابلسي - 23 عبد العزيز بن يوسف الخزاعي - 24 عبد الرحمان بن المبارك الانطاكي - 25 عبيد الله بن خلكان - 26 عبد الواحد بن العباس الكاتب - 27 عبيد الله بن يحيى المنبجي (ابى احمد) - 28 علي بن محمد بن سيار التميمي - 29 علي بن صالح الروذباري الكاتب (أبى بكر) 30 علي بن عسكر - 31 علي بن احمد الطاءي - 32 علي بن احمد المري الخراساني (ابى الحسين) - 33 علي بن عبد الله بن حمدان العدوي سيف الدولة (ابى الحسن) - 34 علي بن ابراهيم التنوخي - 35 علي بن منصور

الحاجب ـ 36 علي بن احمد بن عامر الانطاكي ـ 37 عضد الدولة ـ 38 فاتك المجنون (ابى شجاع) ـ 39 سعيد بن عبد الله الكلابي ـ 40 سعيد بن عبد الله بن الحسين الانطاكي (ابى سهل) ـ 41 شجاع بن محمد الطاءي المنبجي ـ 42 شجاع بن محمد بن اوس الازدي (ابى المنتصر).

وفى الديوان قصائد هجو فى: أبى الفرج السامري النبطي، والاعور بن كروس، واسحاق بن الاعور بن ابراهيم بن كيغلغ، وكافورالاخشيدي والقاضي الذهبي، وسوار الديلمي، وضبة بن يزيد العتبي. وفيه قصائد رثاء فى: محمد بن اسحاق التنوخي، وعمة عضد الدولة، وابى شجاع فاتك، ووالدة سيف الدولة، وأخته الصغرى، واخته الكبرى، وابنه عبد الله، وابن عمه تغلب، وعبده يماك.

والمتنبى لا يكتفى بالقطعة او القصيدة الواحدة فى الشخص الممدوح او المهجو او المرثي، فكثيرا ما يضع فى الشخص الواحد عدة قصائد مادحا او هاجيا او راثيا؛ وليس صحيحا ما يدعيه انصار المتنبى من انه قال الشعر فى كل غرض من اغراضه، فالابواب التى طرقها محدودة كما نرى، وما يحشو به قصائده المدحية والهجوية والرثاءية من وصف او حكمة انما هو شيء عرضي غير مقصود بالذات، وهذه الحقيقة يمكن ان ينتهي اليها كل من يقرأ الديوان من أوله الى آخره، أما من يلقى نظره بالصدفة على قصيدة أو بضعة قصائد ويكتفى بها فكثيرا ما يخدعه الديوان... وانا اوافق الشيخين الاسكندري وعناني على «أن مدائح المتنبى هي اكثر بضاعته، وأنه قلما ترك فيها معنى لم يطرقه» وقد انشأ المتنبى فى موضوعات المدح والهجو والرثاء نحوا من ثلاثمائة قصيدة، وقضى فى معالجتها اكثر من ثلث قرن، أي زهرة حياته

الشعريه من اولها الى آخرها... فما الذى دفع به الى كل هذا الاغراق والافراط؟

المتنبى نشأ فى عصر تفاحش فيه التكسب بالشعر، واصبح وسيلة من وسائل العيش الاعتيادية، فكما يتعلم الانسان الحدادة او الحياكة مثلا ليكسب منها قوت يومه يتعلم قول الشعر ليعرضه في الاسواق ويبيعه فى المزاد العلني، وأي الناس دفع الثمن غاليا قدم له الشاعر ما يرضيه من هذه البضاعة! واول سابقة تاريخية من هذا النوع بين العرب مرت فى عهد الامويين حيث اخذوا يشترون ألسنة الشعراء ويتخذون منها أبواقا لدعايتهم السياسية، كما تشترى الحكومات والاحزاب اليوم السنة الصحافيين المحترفين فى مختلف البلدان، وجرى على ذلك خلفاء بنى العباس الاولون، ثم من بعدهم ملوك الطوائف الذى وزعوا فيما بينهم ممتلكات الخلافة العباسية عربا وعجما. والمتنبى خرج من بيت فقير متواضع يكاد يكون مجهولا، فلا عراقة نسب، ولا اصالة مجد، ولا تقاليد عائلية موروثة، وشأن البيوت الفقيرة الفاقدة للتقاليد الرفيعة أن يقبل ابناؤها - متى رزقوا شيئا من الذكاء والنبوغ - على الدنيا بشره لا حد له، ونهم ليس وراءه نهم، مع تملق زائد لارباب النعمة، وتعلق شديد باهداب ذوى الجاه، ويكون همهم الاول والاخير هو ان يخرجوا من عداد المحاويج الى حظيرة المياسير، ومن دائرة المغمورين الى طبقة المبرزين، دون اعتداد بالمبادىء السامية، ولا تشبث بالمثل العليا، وهذه ظاهرة نفسية اجتماعية عامة فى كل العصور وسائر المجتمعات، لا يشذ عنها فيما اعلم الا اقل القليل، والمتنبى مثال حي لهذه القاعدة فقد تجلت فيه هذه الظاهرة باكمل وجوه التجلى منذ اليوم الذى نطق فيه بالشعر الى ان

صمت صمته الابدي... فكان كسب المال ونيل الجاه غايته الاولى والاخيرة، وكان قول الشعر وسيلته الوحيدة الى بلوغ هذه الغاية!

لقد وجدت ان المتنبى قضى اكثر من ثلث قرن مفكرا فى شيء واحد هو ارضاء «انانيته»: ارضاؤها بمال يطفىء به غلة الحرص، وجاه يكسب به مجد السلطان. وارضاء هذه الانانية المادية المحدودة هو الذى أوحى اليه بنحو من ثلاثمائة قصيدة قالها فى المدح والهجاء والرثاء، ليصطاد بها مال المترفين، وجاه المتغلبين، ولن يجد الباحث فى ديوانه وحدة واضحة محدودة سوى هذه الوحدة: انانية جامحة تحاول الترضية عن طريق المال والجاه، وتستبيح من اجل هذه الغاية كل الوسائل مهما كانت مخالفة للاخلاق، منافية للحكمة! ولا ابالغ اذا قلت إننى لم أجد قصيدة من قصائد خالية من الاستعطاء والاستجداء اما تصريحا واماتلويحا.

واغرب من هذا كله ان يعنى المتنبى بالاصفر الرنان حتى فى المراثى نفسها، والمراثي ابعد ما تكون عن هذا الموضوع، الا تسمعه يقول فى مرثية ابى شجاع فاتك الذى كان في حياته يغذى شرهه بالعطاء الجزيل؟

كذا تظن دياره مملوءة ذهبا فمات وكل دار بلقع

واحسن ما يعبر عن مبدأ المتنبى فى هذا الباب بغاية الجلاء والوضوح هو شعره نفسه، فربما كان خير شاهد على ما اقول، واسمعه يتحدث اليك:

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

اذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذى يبتر العمرا

هما خلتان ثروة أومنية لعلك ان تبقى بواحدة ذكرا

فسرت نحوك لا الوى على احد أحث راحلتي: الفقر والادبا

أخلت مواهبك الاسواق من صنع أغنى نداك عن الاعمال والمهن

لقد امنت بك الاعدام نفس تعد رجاءها اباك مـــا لا

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمى

ضاق صدرى وطال فى طلب الرزق قيامى وقل عنه قعودى

انصر بجودك ألفاظا تركت بها في الشرق والغرب من عاداك مكبوتا

أقام الشعر ينتظر العطايا فلما فاقت الامطار فاقا

سقى الله ابن منجبة سقاني بدر ما لراضعه فطام

والمتنبى لا يخلع عن نفسه هذا الرداء حتى فى اللحظات الاخيرة من حياته ففى آخر قصيدة قالها نجده يخاطب ممدوحه عضد الدولة عند الوداع:

لعل الله يجعله رحيلا يعين على الاقامة في ذراكا

وكيف الصبر عنك وقد كفاني نداك المستفيض وما كفاكا؟

حبي من الا هى أن يرانى وقد فارقت دارك واصطفاكا!

واذن فالمتنبى يكون أقرب الى الكذب عند ما يقول:

وما شكرت لان المال فرحنى سيان عندى اكثار واقلال

وما رغبتى في عسجد استفيده ولكنها فى مفخر استجده

وهو لايكتفى بان يجعل شعره مطية للدرهم والدينار، فيمدح بمقدار، بل يتملق ممدوحيه الى اقصى حدود التملق، ويغرق فى ذلك اغراقا يؤلم كل من له احساس صادق بكرامة الانسان - على عكس ما يخيل لانصاره المعجبين به .. ألا تسمعه يقول:

خير اعضائنا الرءوس ولكن فضلتها بقصدك الاقـــدام

خفت ان صرت فى يمينك أن تاخذنى فى هباتك الا قوام

قد شرف الله ارضا أنت ساكنها　　وشرف الناس اذ سواك انسانا
مدحت أباه قبله فشفى يدى　　من العدم من تشفى به الاعين الرمد
فلا زلت القى الحاسدين بمثلها　　وفى يدهم غيض وفى يدي الرفد
كأن سخاءك الاسلام تخشى　　اذا ما حلت عاقبة ارتداد
فيا بحر البحور ولا أورى　　ويا ملك الملوك ولا أحاشى
لقد حسنت بك الاوقات حتى　　كأنك فى فم الزمن ابتسام
وأعطيت الذى لم يعط خلق　　عليك صلاة ربك والسلام
كالبحر يقذف للقريب جواهرا　　جودا ويبعث للبعيد سحائبا
فلقد دهشت لما فعلت، ودونه　　ما يدهش الملك الحفيظ الكاتبا
رجل طينه من العنبر الور　　د وطين العباد من صلصال
يا من نلوذ من الزمان بظله　　أبدا ونطرد باسمه ابليسا
هدية ما رأيت مهديها　　الا رأيت العباد فى رجل
وثقنا بان تعطى فلو لم تجد لنا　　لخلناك قد أعطيت من قوة الوهم
وأطمعتنى فى نيل ما لا أناله　　بما نلت حتى صرت أطمع فى النجم
أروح وقد ختمت على فؤادى　　بحبك ان يحل به سواكا
فلو أنى استطعت خفضت طرفى　　فلم أبصر به حتى أراكا
الى سيد لو بشر الله أمة　　بغير نبي بشرتنا به الرسل
سلام الذى فوق السموات عرشه　　تخص به يا خير ماش على الارض
ولو لا قدرة الخلاق قلنا　　أعمدا كان خلقك أم وفاقا
فلولاك لم تجر الدماء ولا اللهى　　ولم يك للدنيا ولا أهلها معنى
ولو خلق الناس من دهرهم　　لكانوا الظلام وكنت النهارا
ما زلت تتبع ما تولى يدا بيد　　حتى ظننت حياتى من أياديكا

فان تقل ها فعادات عرفت بها   أو لا فانك لا يسخو بلا فوكا
لك الخير غيري رام من غيرك الغنى   وغيري بغير اللاذقية لاحق
هي الغرض الاقصى ورؤيتك المنى   ومنزلك الدنيا وانت الخلائق
أما لك رقي ومن شأنه   هبات اللجين وعتق العبيد

والمتنبى لا يكتفي بهذا التملق المكشوف فى مدائحه، بل كلما مدح شخصا عرض اثناء مدحه بسب غيره، وهكذا يمدح اللاحقين على قفا السابقين، ويعلن الاواخر — في صراحة تقرب من البلاهة — انه كان هازئا ساخرا فى مدح الاوائل، وينسى انهم سيقولون لا محالة: «ما جرى على المثل يجرى على المماثل» فاسمع المتنبى يقول مادحا:

كريم لفظت الناس لما بلغته   كأنهم ما جف من زاد قادم
وكاد سروري لا يفى بندامتى   على تركه فى عمري المتقادم
قصدتك، والراجون قصدى اليهم   كثير، ولكن ليس كالذنب الأنف
وزارك بي دون الملوك تحرج   اذا عن بحر لم يجز لى التيمم
وكيف وأنت في الرؤساء عندى   عتيق الطير ما بين الخشاش
أرى الناس الظلام وانت نور   وانى منهم لإليك عاش
ومن أعتاض عنك اذا افترقنا   وكل الناس زور ما خلاكا

ومثل هذا فى ديوانه كثير، وكأنه كان يعلن على رءوس الاشهاد انه منافق خداع، وانه لا يحفظ لاحد من ممدوحيه عهدا، ولا يحمل له ودا، على حد قوله نفسه:

مدحت قوما وإن عشنا نظمت لهم   قصائدا من إناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوا فيها مضمرة   اذا تنوشدن لم يدخلن في أذن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً   الا أحق بضرب الرأس من وثن

ولعل تملق المتنبى ونفاقه هما اللذان ارتجا دونه ابواب الملوك حينا من الدهر، حتى انه سئل ذات يوم من أبى سعيد المحيمري لماذا ترك لقاء الملوك؛ فقال فى قطعة يجيبه:

فانهم قد اكثروا الحجابا واستوقفوا لردنا البوابا

ولم يدع لنفسه ـ وهو اعرف الناس بها ـ تلك العظمة والكرامة اللتين يدعيهما له أنصاره الخياليون، بل اعترف انه ترك لقاءهم لشيء واحد، هو انه لا يستطيع ان يتخطى الحجاب، ويكسر الابواب... لا أقل ولا أكثر!

على ان المتنبي كان يستجدي بشعره مختلف الطبقات الاجتماعية، وكان يعرض بضاعته على كل من يؤدى له ثمنها او يائس منه ذلك، من العرب والعجم، والخاصة والعامة، وديوانه مليء بمدائح افراد كثيرين لا قيمة لهم فى التاريخ .. على خلاف ما يدعيه انصاره ـ واذا كان لم يمدح «حارس الطريق» اسحاق بن الاعور، وهجاه فى قصيدته الميمية التى يقول فيها: ـ وفعال من تلد الاعاجم اعجم ـ فليس ذلك لعجمة ابن الاعور ولا لانخفاض رتبته، ولكن لانه كان عاجزا عن أداء القيمة التى ترضى طمع المتنبى، ولقد كفانا كلفة تعليل هذا الامتناع حيث قال في نفس القصيدة:

ان الثناء لمن يزار فينعم ولمن يهين المال وهو مكرم

والى جانب هذا العامل الاول الذى دفع المتنبى الى قول الشعر والاستجداء به شاباوكهلا ـ عامل حب المال ـ يوجد ذلك العامل الاساسي في كثير مماقاله من الاشعار، وناله من الاخطار، أي عامل حب الجاه: فقد كان المتنبى وليد البؤس ورضيع الصعلكة، يحس من اعماق قلبه ما يحيطه من نقص فى المنبت والدرجة، ويريد ان يتخلص من ذلك بكل الوسائل، وربما سمع

من سابقيه فى السن ـ لاول ما عرف الحياة ـ ان فريقامن تأدبوا وقالوا الشعر قبله قد وصلوا الى درجة عالية فى المجادة والسيادة، فخيل اليه انه اذا اجاد هذه الصناعة فقد اصبح كفؤا لا سمى الدرجات وارفع المناصب، وجهل ان مؤهلات الرياسة اشياء اخرى غير تركيب المفردات ونظم الابيات، فلابد لها من مؤهلات فكرية ونفسية فى العقل والمزاج، ولابد لها من عصبية تسندها وتدعمها، اما عصبية قبيل يرتبطون بمن يطلبها ارتباطا دمويا، واما عصبية انصار يرتبطون به ارتباطا قلبيا، وهذه الاشياء الزم ما تكون فى المجتمعات الشرقية الاسلامية، وخصوصا فى العهد الذى كان يعيش فيه المتنبى، يزاد على ذلك ان رفعة النسب ومجد العائلة كانا ولا يزالان في الشرق العربي عاملين من اهم العوامل في الترشيح للرياسة. والمتنبى كان فاقدا لكل هذه الشروط، فلا عصبية قبيل، ولا عصبية انصار، ولا مجد عائلة، ولا مؤهلات شخصية لهذه الامنية... وكل من درس المتنبى في ديوانه يدرك انه كان فاقدا للتوازن، حاد المزاج، فاسد الطبع، قبيح العشرة، متقلب الرأي، سريع الغضب، قوي الانانية، ضعيف الانسانية، وهذه صفات توجب ان يكون مسودا لا سيدا، ومرءوسا لا رءيسا، ولذلك مات يتقطع حسرات على هذا «الحق الذى ظل يطلبه» ـ كما كان يقول ـ فلم يدرك منه قليلا ولا كثيرا!

والمتنبى حتى في حبه للجاه وعشقه للسلطة لم يكن ثابتا على مبدإ، بل كان «وصوليا» يهاود فيما يريد مهاودة غريبة، فقد ادعى النبوة حينا ـ طبقا لبعض الروايات ـ وطلب الملك حينا، ولما رأى ما فى مطمعه الكبير من عقوبات واخطار لم يعد يفكر فى الخروج على السلطات القائمة، بل أراد أن ينال الجاه على يدها وتحت لوائها، وخفض مطامعه الاولى الى

التولى على احدى المقاطعات فقط، ثم الى استثمار احدى الضيعات فحسب، ومعنى ذلك انه بعد ما كان يريد ان يكون ند الملوك ان لم يكن سيدهم، اصبح راضيا ان يكون خادما من خدامهم العاديين... ويلذ لى ان الفت انصار المتنبى الى هذا الموقف الدقيق الذى لا يتفق مطلقا مع ما يدعونه له من عظمة في الشخصية وسمو في الغاية! ورجل يطلب الملك وله «فؤاد الملوك» - كما يقول - كيف يستبيح لنفسه ان يسقط الى الارض سقطة الضراعة والمهانة، وينطق بمثل هذه الصيحات المخجلة التى قد لا تنطق بها حتى النساء:

أمالك رقى ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ... ء والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلا ... ء وأوهن رجلي ثقل الحديد
فكن فارقا بين دعوى أردت ... ودعوى فعلت بشأو بعيد
وفي جود كفيك ما جدت لى ... بنفسى ولو كنت اشقى ثمود

ورجل يفتخر بعلو همته وحفظ كرامته كيف يستطيع ان يقول عن خادم متغلب ككافور:

وامضى سلاح قلد المرء نفسه ... رجاء أبى المسك الكريم وقصده
أنا اليوم من غلمانه في عشيرة ... لنا والد منه يفديه ولده

ثم يخاطبه متملقا تملق العبد لسيده:

وليتك ترعانى وحيران معرض ... فتعلم انى من حسامك حده
اذا كنت في شك من السيف فابله ... فإما تنفيه واما تعده
وفى النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتى بيان عندها وخطاب
اذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسونى وشغلك يسلب

واذن يكون المتنبى بعيدا عن الصدق عند ما يقول:

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه وأراد لى فاردت أن أتخيرا

أريد مـن زمنى ذا أن يبلغنى ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

ولكن قلباً بين جنبي ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده

حيث ان الزمان ما اعطاه شيئا حتى يرفضه، ورغبته كانت محدودة للغاية، فى «ضيعة او ولاية» وبهذا التحديد والتعيين تنطق قصائده الاخيرة قبل موته بخمس سنوات...

وامعان المتنبى فى حب المال وحب الجاه، وتنقله المتواصل فى سبيلهما من مكان الى مكان جعله بغيضا إلى معاصريه الذين كانت تشوكهم انانيته، وتقلقهم عجرفته، فكان - حسب اعترافه الخاص - ثقيل الظل على زملائه من الشعراء والادباء، وموضع الريبة عند المتغلبين والرؤساء، وهذا هو السر فيما يجده الباحث من ابيات عنده كلها قذف وتحقير لاولئك وهؤلاء، بل ان هذا هو السر فيما قذفه بركان المتنبى من اتهامات خطيرة وجهها الى الجنس البشري كله، والانسانية جمعاء؛ الا تسمعه يقول

خليلك أنت لا مـن قلت خلى وان كثر التجمل والكلام

ومن عرف الايام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

فلا زيارة الا ان تـزورهـم أيد نشأن مع المصقولة الخذم

من كل قاضية بالموت شفرته ما بين منتقم منه ومنتقم

هون على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلم

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

فلم أر ودهـم الا خداعا ولـم أر دينهـم الا نفاقا

بليت بهم بلاء الورد يلقى   أنوفا هن أولى بالخشاش
وما ليل باطول من نهـــار   يظل بلحظ حسادى مشوبا
وما موت بأبغض من حياة   أرى لهم معى فيها نصيبا
حولى بكل مكان منهم خلق   تخطى اذا جئت في استفهامها بمن
لا أقترى بلدا الا على غرر   ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكا   الا احق بضرب الرأس من وثن

ولو كان معاصر والمتنبى ملائكة غير اناسي، بحيث لا تثير الانانية حفائظهم، ولا تحرك المجرفة بغضاءهم، وأوصلوه على اكتافهم الى القمة التى يتمنى ان يصل اليها، لكان رأيه فيهم غير هذا الرأي وحكمه عليهم غير هذا الحكم، ولكنهم كانوا بشراء والطبيعة البشرية تمقت الانانية الثقيلة، وتتقزز من الانانيين ولاسيما المغرقين المفرطين منهم كالمتنبى، ومن شأن الغرائز اذا سيطرت على شخص وكانت غير مهذبة فيه ان تثير ما يقابلها عند الاشخاص الآخرين فى اغلب الاحيان، وبهذا تكون انانية المتنبى الجاشة هي التى دفعت من يسميهم «أعداءه وحساده» الى مقاومته بكل ما يستطيعون، فلما قاوموه سلط عليهم لسانه، وشهد عليهم شهادة أقل ما يقال فيها انها «شهادة خصم» وشهادة املتها «العداوة» قبل كل شيء! ويا ليت المتنبى كان يسعى لارضاء انانيته بمؤالفة الناس ومصافاتهم ومعاملتهم بالحسنى والتواضع، فربما الف حوله حاشية، وكون له عصبية فى احدى الطبقات الاجتماعية، وربما أدرك شيئا ولو قليلا من جاه الحكم ومجد السلطان، ولكنه كان كثير الفخر شديد الادعاء، عظيم الفخفخة والكبرياء، وكان يملأ قصائده - على العموم - بذكر مزايا يرى أنه فاق بها بنى آدم منذ بدإ الخليقة الى النفخ فى الصور... ولم

يكن يتجافى أن يصدم أسماع الناس ويهيج عواطفهم فيقول:

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
إن اكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
من لو رآني ماء مات من ظما ولو عرضت له في النوم لم ينم
يحاذرني حتفي كأني حتفه وتنكزني الافعى فيقتلها سمي
كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأني بنى الاسكندر السد من عزمي
الي لعمري قصد كل عجيبة كأني عجيب في عيون العجائب
اذا صلت لم اترك مصالا لفاتك وان قلت لم اترك مقالا لعالم
أنا الذي بين الاله به الاقـــدار، والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها وغصة لا تسيغها السفله
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بانني خير من تسعى به قدم

ويا ليت المتنبي كان يجمع المال ليكون محسنا، ويعشق الجاه ليكون مقسطا، فتكون انانيته من نوع هذه الانانية المحمودة النتائج، الطيبة الثمرات، ولكنه كان يزداد شحا وبخلا وحرصا وشرها بقدر ما يكثر عنده المال، وكان يزداد احتقارا للناس وبغضا لهم وحقدا عليهم بقدر ما يتقدم به العمر. وبخل المتنبي مضرب المثل بين معاصريه، فهو الذى يتشاغل عن جلسائه عند ما تختفي القطعة الصغيرة من المال خلل الحصير، فيكب عليها بمجامعه ينقرها ويعالج استنقاذها الى ان تظهر، ويتمثل بقول الشاعر:

تبدت لنا كالشمس بين غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب!

وهو الذى لا يكفي عبيده حتى معيشتهم اليومية، فيضطرون الى سرقته،

وبيع امتعته، ويجهز من بعد ذلك على العبد السارق فيقتله ويهجوه...
ثم يقول مفتخرا متفخفخا:

وآنف من أخي لأبي وأمي ... اذا ما لم اجده من الكرم
كفاني الذم أنني رجل ... أكرم مال ملكته الكرم!!

ورجل كالمتنبي يرى ان الانسان عنصر شر ومنبع فساد، وان «الظلم» جزء لا يتجزأ من ماهية الانسانية، وان المجتمع مسرح سباع مفترسة، لا تسوده سوى روح الضغينة والانتقام، ويريد - من أعماق قلبه - أن يروي رمحه في الناس دون رحمة - عندما يكون عاجزا بعيدا عن السلطة - ماذا يفعل بهم لو اصبح على رقابهم مسيطرا، وفي مصيرهم متحكما؟ أنا أرى أن المنطق النفسي الواقعي يقضي بان تكون السلطة وقودا جديدا لانانيته، وعاملا مقويا لعجرفته، وأرى أنه بمجرد ما يبلغ الى امنيته، يهلك الحرث والنسل، ويبيد الاخضر واليابس...

وإذا كان «شعوبية» الشرق قديما، والغرب حديثا، يتهمون العرب بأنهم مفطورون على عبادة المادة، متهالكون في حب الرياسة، فلن يجدوا لتبرير تهمتهم ديوانا شعريا ماديا أنانيا بين دواوين الشعر العربي كديوان المتنبي الذي يحتوي على نحو من ثلاثمائة قطعة وقصيدة كل مرماها ومغزاها منحصر في شيئين اثنين: استجداء المال وطلب الجاه.

وان تعجب فعجب أن تدس شخصية المتنبي في زمرة «الحكماء» وان يزج بديوانه بين دواوين «الحكمة» - الامر الذي حاوله فريق من انصاره وخصومه في القديم والحديث - وكأني بهؤلاء وأولئك يتناسون أن للحكمة حماها المنيع وأولياءها الخواص، وان بابها ليس مفتوحا لكل طارق، وسرها ليس معروضا لكل خاطب. فالحكمة من الوجهة الفكرية

وبيع امتعته، ويجهز من بعد ذلك على العبد السارق فيقتله ويهجوه...
ثم يقول مفتخرا متفخفخا :

وآنف من أخي لأبي وأمي — اذا ما لم اجده من الكرم
كفاني الذم أنني رجل — أكرم مال ملكته الكرم!!

ورجل كالمتنبي يرى ان الانسان عنصر شر ومنبع فساد، وان «الظلم» جزء لا يتجزأ من ماهية الانسانية، وان المجتمع مسرح سباع مفترسة، لا تسوده سوى روح الضغينة والانتقام، ويريد — من أعماق قلبه — أن يروي رمحه في الناس دون رحمة — عندما يكون عاجزا بعيدا عن السلطة — ماذا يفعل بهم لو اصبح على رقابهم مسيطرا، وفي مصيرهم متحكما؟ أنا أرى أن المنطق النفسي الواقعي يقضي بان تكون السلطة وقودا جديدا لانانيته، وعاملا مقويا لعجرفته، وأرى أنه بمجرد ما يبلغ الى امنيته، يهلك الحرث والنسل، ويبيد الاخضر واليابس...

وإذا كان «شعوبية» الشرق قديما، والغرب حديثا، يتهمون العرب بأنهم مفطورون على عبادة المادة، متهالكون في حب الرياسة، فلن يجدوا لتبرير تهمتهم ديوانا شعريا ماديا أنانيا بين دواوين الشعر العربي كديوان المتنبي الذي يحتوي على نحو من ثلاثمائة قطعة وقصيدة كل مرماها ومغزاها منحصر في شيئين اثنين : استجداء المال وطلب الجاه.

وان تعجب فعجب أن تدس شخصية المتنبي في زمرة «الحكماء» وان يزج بديوانه بين دواوين «الحكمة» — الامر الذي حاوله فريق من انصاره وخصومه في القديم والحديث — وكأني بهؤلاء وأولئك يتناسون أن للحكمة حماها المنيع وأولياءها الخواص، وان بابها ليس مفتوحا لكل طارق، وسرها ليس معروضا لكل خاطب. فالحكمة من الوجهة الفكرية

تستلزم المعرفة بسلسلة المكونات - على تباين أنواعها - معرفة شاملة واضحة، والاحساس بوحدة الكون - على اختلاف اجزائه - احساسا قويا صادقا، وتستلزم فوق ذلك النظر الى الاشياء كلها بهدوء ورزانة وصبر وطمانينة وتعمق. ومن الوجهة الخلقية تقتضى التسامي عن الاغراض الشخصية، والتباعد عن الاطماع المادية، والتعلق بالمثل العليا الروحية، والسير فى الحياة الخارجية طبقا للفكرة الداخلية. ولا يستطيع الحكماء أن يقبلوا بينهم من لم يستوف هذه الشروط الاساسية فكريا وخلقيا والمتنبى إذا نظر إليه بهذا المنظار - منظار الحكماء الخاص - يوجد بعيداً عن ميدان الحكمة كل البعد. أما من الوجهة الفكرية فقد كان ضيق الفكر، ضعيف الثقافة، محدود الافق، وما ظنك برجل استمد أكثر معلوماته العامة من «دفاتر الوراقين» ولم يترب فكره على أية طريقة من طرق التربية العقلية، وكل ما درسه على بعض الشيوخ ينحصر فى شيء من النحو واللغة والادب. فمتى كانت دراسة هذه الاشياء تفتق الذهن للحكمة أو تقعد صاحبها على عرش الحكماء؟ ومتى كان الانسان الذى تسوده ظاهرة القلق والاضطراب والعجلة والتشاؤم والانقباض أهلا لأن ينتج فى ميدان الحكمة النظرية أو العملية انتاجا صالحا جديراً بهذا الاسم؟ أليست الحكمة محتاجة الى عمق الفكر، وبعد النظر، ونفاذ البصيرة، والصبر على متاعب التفكير الهادىء المتواصل، وضبط الغرائز والعواطف على موجب المنطق السليم والعقل الرزين؟ ومتى كان الانسان الذى يجهل نفسية معاشريه، وأصول المجتمع الذى يعيش فيه، كفؤاً لان يقال له «حكيم»؟ وأما من الوجهة الخلقية فقد كان المتنبى شاذ العواطف جامح الغرائز، ماديا، أنانيا، فرديا،

(اقرأ تتمة البحث فى الصفحة 133 من هذا الجزء)

المتنبي شاعر الدهر (1)

شيدت بالآيات خلدا ورفعت بالابداع بندا
وبنيت في الآداب صرحا وملاته صورا وشيدا
وتخذت من حر المعانى عسكراً لجبا وجندا
وبهن نلت التاج يبهر مالكا ويتيه فردا
فرجاك ارباب العروش لكي تذيل وكي تمدا
وحبوك بالثمن الربيح لكي ينالوا منك حمدا
علما بان المـــال لايجديهم كنزا وعـــدا
وقهرت كل معانـد فدمو ان حمل الفرندا
اقصدته القول المميت فعاد كالشيطان أدا
لم يستطع حربا ولكن لم يدع غيظا وحقدا
فرماك من خلف الستار بما يكون عليه ردا
وقضى الليالى ساهرا لم يكتحل في العين رقدا
يجلو عرائس طالما اعشين ناظرهن رصدا
هن الغوانى بالجمال عن الملابس حين تسدى
اهبطتهن من الخلود فما تطيق لهـن قيـدا
وجلوتهن الى القلـوب فكن امتاعـا وبـردا
وقنصتهن من الفضاء وكن لا يدرين حـدا
فدخلن من قلب الى قلب وما يخطئن قصدا
وقطعن من عصر الى عصر وما يبلين ردا

(1) لكثرة المواد اضطررنا الى حذف بعض الأبيات من القصائد الآتية مع الاحتفاظ التام بما فيها من غرر وبدائع، واضطررنا ايضا الى ابقاء عدة قصائد اخرى بدون نشر، والى اختصار ما في بعض الابحاث من شواهد شعرية كثيرة يغني بعضها عن بعض، فمعذرة الى أدبائنا الكرام - المغرب الجديد -

فلتحي ذكرى نبي الشعر!

هزت قبور بني حمدان في حلبا ذكرى تسابق فيها ألسن الادبا
اليوم تسترجع الآداب دولتها ياسعد من يستلذ الشعر والادبا
ماست على الراحة الاقلام من طرب ومن ينل مبتغاه فليمس طربا
تختال بين سطور الطرس مشية من نال انتصاراً على الاقران والغلبا

حتى اذا الألف انقضت وطوينها جزرا ومدا
وملأنها ذكرا وتمجيداً وازراء وكيدا
ضمت لك الألف الجديدة في جميع الأرض حشدا
متسائلين عن الذى في العالمين قد استجدا
فاذا عرائسك الخوالد قد طلعن يفدن فيدا
هذا هو الشعر الذى ملك النفوس وما تعدى
شده الورى من شاعر بذ الورى عمرا وزيدا
وطوى الزمان كأنه لم يعتور قبلا وبعدا
ياشاعر الدهر الذى قدنال بالتجديد خلدا
بيني وبينك ذمة موصولة ادبا ومجدا
لو تشهد الحفل العظيم يميد بالاعجاب ميدا
لشهدت انى قدوفيت ولست ممن خان عهدا
ان كان يفصل بيننا عصر وبلدان ومبدا
فالروح ليس يحدها زمن به الاجسام تردى
والشعر يجمع بيننا فى عالم أسمى وأهدى
تتماثل الابعاد فى عليائه قربا وبعدا

محمد علال الفاسي

أما اليراع فمذ الف، يقوم على طرس الخلود، بذكرى ابن الحسين كبا
ألقى به السيف منبوذاً، وقام به ذود اليراع الى العليا بكل إبا
والى له ذكريات، ماخلا زمن لم يوح عنه بحوثاً تغمر الكتبا
يعنى ذوو الندوات الحافلات به كأن غدا بحثهم في شعره قربا
درساً وشرحا وتعليقا ومنتخبا والماس لولا شفوف منه ما انتخبا
ما بين ممتدح، مطر، ومنتقد، صار التحامل في أبحاثه قطبا
حتى غدا المتنبى في الورى مثلا أعلى اذا ذكر الافذاذ في الادبا
اليوم للمتنبى يوم معجزة أجل لحاظك كيما تبصر العجبا
أحيا لنا الادب الحي النضير وقد امسى يباباً دريساً صفصفاً خربا
كذا كذا فليرِ الاعجاز إذ رجعت سبا الى عهدها بعد افتراق سبا
آي الخلود قرأنا في صحائفها في اليوم أن قد أمنا فقدنا الادبا
فلتحي ذكرى نبي الشعر حافلة نفتض منها عذارى الشعر والعربا(1)
ذكرى يرى المغرب الاقصى بطلعتها ثغراً تألق معسول اللمى شنبا
والشرق اجمع وضاء يفيض سناً كانما ائتلقت ابهاؤه شهبا
قامت محافله في كل عاصمة نثراً بديعاً وشعراً رائعاً عجبا
كانما حلب الشهباء عاد لها في اليوم ما احتجنته وحدها حقبا
قالوا تنبأ إلحاداً ومخرقة والظلم اكفر في سودائه فصبا
الله يعلم ان الافك ما زعموا نشهد العقل والتاريخ والادبا
لكن تنبأ عجبا بالقريض ولو فازوا بآياته تألهوا عجبا
صموا عن الوحي وحي الشعر ثم عموا وابن الحسين يلقى وحيه صببا
وحي الضمير إذ انار الشغاف به فالقلب يخترق الاستار والحجبا

(1) عرب ككتب ج عروب كصبور الحسناء.

يشاهد الغيب، رأي العين عن كثب ... ويلمس العالم العلوي مقتربا
فينتحي الملأ الاعلى بأخيلة ... جذابة تستمد السبعة الشهبا
فينبع الشعر من ينبوعها عببا ... وتبهر الراح من كاساتها حببا[1]
فيخلب القلب روعات يكاد بها ... ان يستطار، وأعلى الشعر ما خلبا
ويعجب الناس: من أنى مآخذه؟ ... ولو دروا ذاك لازدادوا به عجبا
ذياك مصداق دعوى ابن الحسين ومن ... قال الحقيقة، يا للناس هل كذبا؟
فاجاه وهو صغير ما استبان به ... في العبقرية ما عن غيره حجبا
ولم يجد عنه تعبيراً يقربه ... فقال ما قال لا كفر اولا كذبا
ايه ابا الطيب المغبوط في همم ... كالبحر يزبد في امواجه عببا
هل طبت نفسا فكم من شهرة نشرت ... اما ترى الشرق عنها هب وانتدبا
قد كنت تطلبها فوق الظبا فاتت ... تحت اليراع خلودا فوق ماطلبا
ان يغلبوك على الدنيا وقد شحذت ... منك المثاثير (والدنيا لمن غلبا)[2]
فانت وحدك فيها اليوم منفرد ... استرجع القلم السيال ما اغتصبا
تستوهب العبد ضيعات تناط بها ... وأيكم يستحق اليوم ان يهبا
ما مصر ما الشام مما انت ما لكه ... ياما لكا فوق عرش الشرق منتصبا
الشرق اجمع في يمناك فاقض بما ... ترضى فلست تلاقي فيه اي ابا
هبت به ذكريات منك حافلة ... في ذكر احسن ما اوتيته ادبا
فلتحي ذكراك ولتحي العروبة في ... تكريمها نبغاء الشعر والادبا

محمد المختار السوسي

(1) عبب ككتب ج عباب كعقاب وهو معظم الماء في البحر المتموج.
(2) المثاثير ج مأثور: السيف ذو الاثر. والدنيا لمن غلب من بيت لشاعرنا

آية اللغة الفصحى

ذكراك تخلد خلد الفن فى الادب ... وتبعث الروح فى كتابنا العرب
ذكراك روح تحيينا مصافحة ... فنستجد بها التجديد فى الادب
ذكراك روح تغشتنا لتوقظنا ... أن نحفظ المجد من تاريخنا الادبى
ذكراك روح أحاطتنا تبركنا ... لنحرس اللغة الفصحى من العطب
ذكراك روح أتتنا كي تعلمنا ... بلاغة الشعر او بلاغة الخطب
ذكراك تخلق للبيان كم صوراً ... تاه الجمال بها والفن من طرب
تصور الفن والجمال فى لغة ... بذت فصاحتها فصاحة الكتب
ورحبت بالمعانى : أية خلقت ... الا جلاها البيان فتنة العجب
يكسو البيان المعانى كم مثين حلى ... فتستبين المعانى فى حلى قشب
إذا احتفلنا بذكراك الغنية فى ... حفل حفيل بكتاب لذا نجب
فإنما قد حفلنا بالبيان، وقد ... مثلته خالداً كالنور فى الشهب
قد مثل المتنبى آية اللغة ال ... فصحى، وآيتها الاعجاز للعرب
فما يقاربه ولن يقاربه ... أفذاذها الشعراء ساسة الرغب
وما يسامته ولن يسامته ... كتابها البلغاء قادة الادب
مهما تسامت الى الاعجاز ألسنهم ... ردوا نكوصا على الاعقاب بالغلب
أطل من شرفة الالف السنين على ... أتباعه وتلاميذ له نخب
فشارك الادباء فى احتفالهم ... به وأطرفهم بوجهه الطرب
ليستمدوا من الروح المطلة ما ... شاءوا من الوحي للاتيان بالعجب
فمجت الالف والتاريخ يسمعها ... فدون القول محفوظاً على الادب
فلتحي للغة الغناء آيتها ... وليحي للمتنبى خلده الادبى

محمد القمري

ذكرى المجدد

أبعد مرور الالف ذكرك يعذب *** وفى شاعر الهيجا نخط ونخطب
تقيم اليك الذكريات معاشر *** شعارهم الاخلاص والحق مذهب
وعهدي أن الذكر بالموت ينتهى *** وكل شئون المرء بالموت تذهب
وشاعرنا الممتاز لم ينس أو يغب *** وليس يغيب الشاعر المتغلب
وفى هذه الذكرى دروس مفيدة *** تقول لنا عيش الهوان تجنبوا
وكونوا رجالا أقوياء أعزة *** ولا تجبنوا فالجبن داء مخرب
وهل يدفع الجبن المقدر سابقا؟ *** ألا إنما المقدور أمر مغيب
تفهمنا ذكرى «المجدد» عزمة *** وشدة بأس فى القريض تحبب
وما الخلد فى شعر المجدد وزنه *** وقافية بل جدة وتصلب
قد اتفق الحذاق أنك شاعر *** تفيض شعورا والمعانى تتطلب
وانك فى الشعر العظيم مجدد *** مجيد اذا صفت القوافي معرب
فمن شاء أن يبقى ولومات ذكره *** يصارح بالتجديد لا يتهيب
فما فاز الا مبدع ومجدد *** ولاساد الاذو ابتكار ومغرب
أبا الطيب الصنديد ان شبابنا *** يحاضر بالايجاز عنك ويطنب
أقاموا اليك المهرجان وأنصفوا *** لشعرك والتقدير للشعر أوجب
أبا الطيب التواق لاتخش سبة *** فإن العظيم الحر لابد يغلب
لقد زعموا دعوى النبوءة وافتروا *** «أوحي يرى بعد النبىء ويطلب»؟
اترضى بما قالوه فيك فان تكن *** به راضيا أين الشعور المهذب؟
سواء أكان الامر صدقا ام انتهى *** فقد تبت والاسلام لا يتعصب
فنم فارس الميدان إنك خالد *** بمعجزة الشعر البليغ محبب

عبد المجيد الفاسي

المتنبي شاعر الشباب

شاعر الشباب في نظري هو الذي يعبر شعره عن شعورهم، ويفصح عما يجول بضمائرهم، ويستخرج من بحر الحياة مايتصل مباشرة باعماق نفوسهم، ويثير نشوة النخوة في رءوسهم، ويستولى بسحر بيانه على عواطفهم، ويترجم بلسان الحقيقة عن سوالفهم، حتى يروا انه حمى قوميتهم المنيع، ولسان وطنيتهم الذريع، وان شعر الحقيقة وحى يوحى، وان رسالة شاعرها فاقت في الاشراق يوحا، وان الشعور الحق لايبليه تطاول الاعصار، ولايوقفه عن السريان ارهاق ولا إعصار

هذا ابو الطيب المتنبي مرت على وفاته عشرة قرون كاملة وهو حى خالد يتمثل لأبناء العروبة في شعره وشعوره واعتزازه بنفسه وبعد مرماه وسمو هدفه ورقة حسه، وتفوقه حتى في طفولته على ابناء جنسه، تراه في تعبيره عما يدور بخلده من الشعور الحى، ممتازاً علي غيره من شعراء الخلق، يقود الشباب الى مواطن العزة والشرف، ويصرفهم عن التخنث والتانث وحب الترف، فمثله من يلقب بشاعر الشباب، ولو مضت عليه مئات السنين والاحقاب، وكيف لايدعى بشاعر الشباب بل كيف لايحتفل بذكراه الالفية نخبة الشباب وهو الذي لما قيل له وهو طفل في المكتب ما احسن وفرتك قال:

لاتحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة يعلها من كل وافي السبال

وغير خاف على شبابنا ان الوفرة هي الشعر المجتمع على الراس فهذه الوفرة في نظر ابي الطيب لاتحسن الا على راس ملأته النخوة العربية، وحملته النفس الطماحة الابية، وان الوفرة اذا كانت لمطاق التزيين

والتجمل، لاتحسن بالفتى العربي ولاتجمل

وما الحسن في وجه الفتى شرفاله   اذا لم يكن في فعله والخلائق

ليس الجمال اوجه صح مارنه   انف العزيز بقطع العز يجتدع

فقر الجهول بلاقلب الى ادب   فقر الحمار بلاراس الى رسن

لايعجبن مضيما حسن بزته   وهل يروق دفينا جودة الكفن

لله درك يا ابا الطيب ياصاحب الوفرة السوداء ما ابعد همتك، واشرف ذمتك، لقد بيضت وجه العروبة وانت طفل صغير ومثلت لنا في بيتيك الخالدين خلقا من اخلاق الطفل العربي في عصرك ومصرك، وكيف كان يغذي بلبان العزة والتربية الصحيحة العالية، وكيف كانت نفسه الحرة نزاعة الى ما خلقت لاجله، طماحة الى تصديق قوله بفعله

بالله عليك من هو هذا الشاب «المعتز بوفرته» الذي يسمع مثل هذا الشعر ولايهز منه الاريحية ولا يتصل منه بالعاطفة، فتثور ثوران العاصفة، وكيف لا ومثل هذا الشعر هو نفس شعور النفس بل هو رسول غرائزها وعواطفها الثائرة، السائر بها مسير الامثال السائرة، ناهيك بشعر اذا مر بالمسامع، تكهربت مشاعر السامع، حتى ليخيل اليه انه قد مر بمشاعره تيار كهربائي اثار مكامن نفسه، وملك عليه مذاهب حسه، اولا يكون ابو الطيب بعد هذا شاعر الشباب، في سائر الاحقاب، وكيف لايسمى بشاعر الشباب، من يشحذ عزائمهم لخوض العباب، وطرح القشور والتمسك باللباب، بمثل قوله:

عش عزيزاً اومت وانت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

فمن هو ياترى هذا الشاعر، الذي يقدر على استفزاز المشاعر بمثل هذا الشعر الشاعر، والاسلوب الساحر، فتجيش نفوس الشباب غب

التكهرب به وهي مشبوبة، وفي قوالب الاختلاج بكهربائه مصبوبة، وقد قادها بقوة تعبيره الى عبور المحيط، وتذليل الصعاب التي تحف به وتحيط فيصبح الذليل عزيزا، والحرز المستباح حريزا، ثم يقول:

ومراد النفوس اصغر من ان | تتعادى فيه وان تتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا | كالحات، ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحي | لعددنا اضلنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بد | فمن العجز ان تكون جبانا
ذل من يغبط الذليل بعيش | رب عيش اخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه | مالجرح بميت إيلام

هذا الذي يبث في الشباب روح الكفاح والنضال، ويعلمهم كيف يكون تكسير النصال على النصال، ويتصل بعواطفهم المحتدمة اي اتصال كيف لا يدعى بشاعر الشباب، بل كيف لا يتلاعب بالالباب

على ان من لوازم شاعر الشباب الطموح والتعاظم والتفاخر والشموخ وعلو النفس وكبر النفس

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه | ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولاكن قلبا بين جنبي ماله | مدى ينتهي بي في مراد أحده
يقولون لي ما انت في كل بلدة | وما تبتغي، ما ابتغي جل ان يسمى
اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة | فلا تستعدن الحسام اليمانيا
ولا تستطيلن الرماح لغارة | ولاتستجدن العتاق المذاكيا
فما ينفع الاسد الحياء من الطوى | ولاتتقى حتى تكون ضواريا
واذا كانت النفوس كبارا | تعبت في مرادها الاجسام
فاطلب العز في لظى وذر الذ | ل وان كان في جنان الخلود

«اغرودة الروح وانشودة الطموح»

وما الدهر الامن رواة قصائدي اذا قلت شعر اصبح الدهر منشدا

فسار به من لايسير مشمراً وغنى به من لايغني مغردا

هكذا يكون شاعر الشباب، وهكذا يكون شعره الجذاب وحماسه الوثاب

ودع كل صوت غير صوتي فانني انا الطائر المحكى والاخر الصدى

ناهيك بشاعر يقول وما الدهر الامن رواة قصائدى لخ في عصر كان فيه للادب قيمته وكان مملوءاً بفطاحل الادباء، من الملوك والامراء والوزراء فمن دونهم فيطاطيء له شعراء عصره جاثين بين يدي شاعريته الطماحة خاضعين خانعين، فهو بحق شاعر القوة في سائر العصور، وامير شعرائها منذ كان الى يوم النفخ في الصور

خليلى انـي لا ارى غير شاعـر فلم منهم الدعوى ومني القصائد

وكيف لا يطأطيء له الشعراء وقد نزل الدهر على حكمه، ورفع الحجاب برواية حكمه حتى عن صمه وبكمه، فاسمع الصم، وانطق البكم وكيف لا يكون الدهر من رواة قصائده، وقصائده هي النفس الطامحة والعظمة الخالدة، والنبرة الساحرة، والحكمة العامرة، والامثال السائرة والافلاك الدائرة، والاخلاق العالية، والاعلاق الغالية، والموارد الصافية والمراهم الشافية، وكيف لا يكون الدهر من رواة قصائده وهو الذي بذ شعراء عصره، وخفقت على قصور أدباء الملوك وملوك الادباء راية نصره وتسابقت الملوك والوزراء، والرؤساء الى اقتناء مدحه، وهو يتيه عليهم تيه الواثق بفوز قدحه، ويملى عليهم شروطه فيكون القبول جزاء شرطه.

ان شاعر اجبارا كالمتنبى يؤثر شعره في النفوس تاثيرا جبارا،

ويقود الى اجلاله كبار الرتب والنفوس إجباراً، ويزداد مع تراخي العصور اعظاماً وإكباراً، وقد عرف قيمة نفسه وقدر فنه البديع حق قدره وأنزل نفسه منزلة سامية دونها في نظره منزلة ممدوحيه كيف لا تستمد صور الابداع والابتكار الرائعة روعتها وجمالها وجلالها وخلودها من روحه، بل كيف لا تساير روحه روح الحياة الى جانب الاحياء بل كيف لا تتأثر به الغرائز تأثرها بالجمال، بل كيف لا تخلع عليها من سمو هدفه اردية الجلال، وهو الذي يقول:

اعلى الممالك ما يبنى على الاسل   والطعن عند محبيهن كالقبل

من اقتضى بسوى الهندى حاجته   اجاب كل سؤال عن هل بلم

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة   بين الرجال ولو كانوا ذوى رحم

من اطاق التماس شيء غلاباً   واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

كل غاد لحاجة يتمنى   ان يكون الغضنفر الرئبالا

ومن طلب الفتح الجليل فانما   مفا تيحه البيض الخفاف الصوارم

ولو برز الزمان الى شخصا   لخضب شعر مفرقه حسامى

وما بلغت مشيئتها الليالى   ولا سارت وفي يدها زمامى

اذا امتلأت عيون الخيل منى   فويل في التيقظ والمنام

اني لأشم في هذا الشعر رائحة الشباب ، وروائح الجنة فى الشباب

آلة العيش صحة وشباب   فاذا وليا عن المرء ولى

فارم بى ما اردت منى فانى   اسد القلب آدمى الرواء

وفؤادى من الملوك وان كان   لسانى يرى من الشعراء

انا الذى نظر الاعمى الى ادبى   واسمعت كلماتى من به صمم

من كان فوق محل الشمس موضعه   فليس يرفعه شيء ولا يضع

إني لا اخال المتنبي امامي الا كالاطلس، الجبار الشامخ وقد حف بالجلال، ولم يعره ولن يعتريه كلال، يملي من قمته على الضمائر حديث خلجاتها، ويرن صداه فيسمع النفوس دبيب همساتها، يزداد على مر الجديدين جدة، والقرون في خدمة عظمته مجدة، والخواطر تجول بجولته، والعواطف تخضع لصولته، وتستظل بظل دولته، ولاعجب فهو الشاعر الفذ الذي بذ الشعراء سابقا ولا حقا، وصور العواطف والاحساسات تصويرا ناطقا، وعلم امته المجيدة كيف تسترجع حقها المغصوب، وتسترد سلبها المسلوب، وجس نبض شعورها فايقظه، واثار من اخلاقها العادية ما بهر العالم وبهظه، وانما الامم الاخلاق: (البارودي)

هذا هو الادب المأثور فارض به علماً لنفسك فالاخلاق تنتقل
من كل بيت اذا الانشاد سيره فليس يمنعه سهل ولاجبل
لم تبن قافية فيه على خلل كلا ولم تختلف في رصفها الجمل
تغايرت فيه اسماع وأفئدة فكل ناد عكاظ حين يرتجل
لاتنكر الكاعب الحسناء منطقه ولايعاد على قوم فيبتذل

وبعد فحياة ابي الطيب حياه مملوءة بالعظائم والمدهشات شان العظماء الطامحين فلندع التوسع فيها لغيرنا من الكتاب والشعراء. وان ابا الطيب لم يعش عيشة الشعراء المتواضعين المتملقين، بل عاش عظيما ومات عظيما وخطت عظمته باقلام الانصاف على صفحات الخلود، ولا ادل عندي على عظمته من كون سيف الدولة وهو من هو في سمو الادب ونخوة الملك وعزة الامارة كان يسعى قبيل اتصاله به للتقرب منه رغبة في اقتناء مدحه والتمتع بادبه العالي، على كثرة الشعراء المجيدين في عصره وملازمتهم لبابه، وتعلقهم باهدابه، ويقبل المتنبي على سيف الدولة ويشترط عليه ان لا ينشد الشعر

بمجلسه الا جالسا فيدخل سيف الدولة تحت شرطه. اليس ذلك دليلا على تفرد المتنبي دون معاصريه من كبار الشعراء بمزية خاصة حل بها في الذروة العصماء؟ اليس اهتمام الوزير المهلبي والصاحب ابن عباد وهما من هما ادبا ونفوذاً باستهوائه بكل ما في وسعهما من شتى الوسائل دليلا على تفرده بالعظمة الادبية في عصره، وهو يانف من الانقياد لارادتهما والنزول على حكمهما، حتى كان ذلك مثيراً لغريزة الحقد عليه وانتقاده وتتبع سقطاته؟

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

ومن ذا الذي يرى ملوك الارض ورؤساءها يتهافتون على اقتداء مدحه واكتساب رضاه تهافت الذباب على العسل مع ما جبل عليه من الطموح والشموخ ثم يخاطبهم مخاطبة الصديق لصديقه وهم راضون، ولا يشمخ بانفه ولا يطأ الثريا بقدمه عجباً وتيها؟ بل كيف لا يحلق بفكره في سماء الابداع والكمال، ويقول معترا بنفسه، معتدا بعظمته، واثقا بقوته:

واذا اتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي باني كامل

هذا ما سنح للذهن القريح الجريح   وقد كان بوده ان يستوحي وهو مستريح

وقلما يبلغ الانسان غايته   ما كل ماشية بالرحل شملال

وما كل هاو للجميل بفاعل   وما كل فعال له بمتمم

ولكن قلبا بين جنبي ماله   مدى ينتهي بي في مراد أحده

محمد بن اليمني الناصري

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام

ليس عزماً ما مرض المرء فيه   ليس هماً ما عاق عنه الظلام

واحتمال الاذى ورؤية جانيه   غذاء تضوى به الاجسام

ساعة مع المتنبي

قد يكون هذا العنوان غريبا ولكنه العنوان الذي ارتسم في ذهني بعد أن تصفحت ديوان شاعرنا الخالد ساعة من الزمان. ارتسم في ذهني وما لبثت أن كتبت حروفه على الورق وأنا لا أدري ما اخط ولا كيف أعبر عن هذه الاحساسات التي انبعثت في نفسي ولا عن هذه المشاعر التي تحركت في قرارة روحي عند ما جالست المتنبيء وهو يتلو علي من الشعر افصحه ومن الحكمة اروعها ويضرب على وتر هذا الاحساس الذي يتجلى إذا ما جالست العظماء وتبينت اعماق ما تضطرم به نفوسهم التواقة الى المجد والى الفخر وما يصبون إليه من خلود صحيح.

فالمتنبيء ابعد الناس أن يكون شاعرا فحسب أو أن يكون حكيما لا غير، بل هو هذا الشخص الذي يجمع في اتزانه العقلي إلى شعور الشاعر الفياض وحكمة الفيلسوف الفطري شعورا بقوة تكتسح كل معنوياته لتتجه به إلى العظمة وإلى الشعور بها وتمثيلها في شعره الخالد وتصرفاته اليومية الفانية، فالمتنبيء هو الشاعر العربي الوحيد الذي نظر الى الحياة بمنظر العظيم وتصورها امامه حقيرة مهما ظهرت للناس بمظهر القوة والبطش، فسار يخترق السهل والوعر وهو لا يرى كل شيء عظيم الا جديرا به، لا يلتفت الى سلب الحياة ولا الى ايجابها ولكنه ينظر الى نفسه فلا يراها أوتيت ما تستحق من مجد واعزاز، فيفيض شعوره ويغلي احساسه، ويندفع بشعر لا يقره عليه بسطاء المثقفين ولكن يسجد أمامه افراد لا يحمدون للاقدار تصرفاتها بل يطلبون منها المزيد كلما قدمت لهم الجديد.

اجل قد تكون حياته مزيجا من محاولات فاشلة وادعاءات فاترة

واتجاهات خاطئة، ولكن حياة العظيم لا تقاس بما تقاس به حياة افراد المجتمع ولا حسب سنن الوسط او العصر بل هي انتشرك بقوتها وتغمض عليك طريق المجد لا تستقر لميزان ولا تقف عند حد، وهي تسعى وتسمى لتكسب الصفقة فاذا وقفت لا تطمئن، واذا خسرت لا تيأس ولا تفتر بل تدور حول مبتغاها - وهو تبوؤ العظمة - من كل الجهات وتبرز كل وسيلة لغايتها، فالمتنبي لم يكن من هؤلاء العظماء الذين يكتفون بالنظرية المثلى يعتنقونها ولا يحيدون عنها ينزوون في عالم الفكر يرتلون لذة عظمتهم غير العملية، بل من هؤلاء الجبابرة الذين تجسم عظمتهم في الطمع وحبهم للحياة، لا في التجرد عن اعراضها ولكن في الاندماج في نزعاتها والتلبس باهوائها.

هذا هو المتنبيء الذي نقرأ شعره فنعجب بطموحه الفذ ومطامعه الواسعة وتطالعنا كتب السير بسيرته التي لا تعرف الخير الاصطلاحي من الشر الاصطلاحي بل تعرض امامك شخصية قوية تومن بنفسها وتبرر عملها وتسير. شخصية عبرت عن مكنونات نفسها بشعر يجمع كل مميزات التفوق والخلود ويتبوأ شاعره منزلة سامية بين شعراء العربية في متباين عصورها، فانتاجه الشعري، وان وصف في بعض المناسبات بمعايب تافهة لا تخرج عن حيز الصياغة واللفظ، فهو جدير أن يخلد صاحبه دهرا طويلا فتحتفل العربية بعيده الالفي احتفال دراسة وتفهم لهذا الشاعر شاغل الدنيا، ويهتم كل باحث بناحية من نواحي خلوده وحسبي ان اصور شعوري بعد ان خلوت باشعاره مدة من الزمان نحو نفسه المتهبة حماسا الى المجد والعظمة.

فساعة بجانب المتنبيء تشعرك بقوته وبنفسه التي يتطاير شررها

والتي تبين لك عن مظاهر عظمتها جلية واضحة، فانك لا تكاد تسبر في ديوانه جزءاً يسيراً وتمعن النظر في معاني شعره حتى تراك مرغما ان تنظر للمتنبيء نظرة بعيدة عن النظرة التي يصورها كل من كتب عن حياته ووصف لك سيرته، اذ يحاول المغرضون ممن ترجموا له أن ينزعوا عنه رداء العظمة ومجد العبقرية بالنظر لبعض صفات اتصف بها مثل حب المال ومرارة اللسان، ولكن الشاعر الخالد يظهر نفسه ويرغم الذوق الادبي أن يعترف بما يحدث من مقاييس تحتذيها الاجيال كمثل من المثل الادبية العليا الصالحة للبقاء والخلود امداً طويلا.

أول ما يتجلى لك اذا ما جالسته هذه الحكمة الرائعة التي تنطلق لا من عقل الشاعر ولا من علمه ولكن من نفسه، تنطلق لتصير مثلا ترد ده الاجيال وتتجاوب صداه القرون، فشاعرنا لم يكن بهذا الفيلسوف الذي يبحث عن ماهيات الاشياء ويحلل عناصرها تحليلا عقليا نعجب به ولكنا قد لا نستسيغه، فهو وان اتصل بالمعري في ناحية الحكمة التي امتلأ بها شعره فهو متباين معه، فالمعري يشعر وهو في عالم الفكر يستعرض النظريات ويقلب المذاهب. أما المتنبيء فهو يشعر بالحكمة الرائعة ومصدره الوحيد نفسه، هي التي تغذيه وهي التي توحي اليه جمال مظهرها فاذا بابيات شاعرنا يكتب لها الخلود لا في بطون الكتب فحسب ولكن تحيى في الافواه كلما شاءت ان تعبر عن قوانين الكون وانظمة الحياة.

فاذا جاز لنا ان نسمي هذه الناحية الحكمية من احساس شاعرنا باسم يدل على مدلولها خير دلالة فليكن «فلسفة فطرية» ولكي نتصور معنى هذه الدلالة تصورا صحيحا علينا ان ننظر لمصدر فلسفة المتنبيء الشعرية، فان من الغريب أن تحاول جماعة من الادباء أن ترد فلسفته

الى مصدر خارجي عن احساس الشاعر ونفسيته، فتزعم أن أغلب حكمه مقتبسة من فلسفة يونانية أو اسلامية، ولكن شاعرنا لم يكن من طراز الذين تزودوا بحظ وافر من العلوم النظرية الفلسفية وهو ليس بالشخص الذي يوجد مذهبا عقليا او الذي يعتنق مذهبا معينا فى الحياة، بل هو شاعر يندفع بنفس الاحساس الذي يندفع فى تياره كل شاعر صادق العاطفة دون أن يتقيد بنظريات فرد أو مذهب. الا ان للمتنبىء غورا فى الاحساس وعمقا فى الشاعرية، فاستطاع ان يكتنه الحياة وان يعبر عنوا عن نا،وسها، فمصدر فلسفته اذن فطري مستمد لا من تجاربه ولا من ثقافته ولكن من شعورة بالحياة.

وثاني ما يتجلى لك أن تشعر بقوة نفسه واعتداده برجولته: قوة تتجسم أمام عينيك واعتداد تلمسه فى كل قصيدة، ليسا من هذا الفخر المبتذل الذي اصيب به شعراء كثيرون قد تبتسم فى بعض الاحيان وهم يعرضون عليك بضاعتهم، ولكنه فخر رجل تشعر باحترامه وتراه جديرا بكل تجلة ولا مفر لك من ان تفسح له حيزا من صدرك ومكانا من ذاكرتك لتحفظ ابياته وترتل فخره كانما انت شاعره.

ذلك الفخر يصور نفسية الشاعر الذي يحلم بالمجد وان لم يسع اليه من الطرق التي تؤدي الى المجد، فهو وان خاطب الملوك والامراء لم ينزل بمركزه دونهم بل تحدثه نفسه دائما انه عظيم فينطلق ليردد:

وفؤادي من الملوك وان كا　　ن لساني يرى من الشعراء

فخر ساذج، ولكنه فخر رجل يشعر بشيء فى اعماق نفسه، فالرجل في كل محاولاته سعى للمجد واحب المجد ولكنه لم يكتسب الا بعض المجد فلم يكن فخره يعبر عن بعض هذا المجد، وانما عبر عن نفسه كانما اوتيت

المتنبي شاعر هذا العصر

تطور اللغة

ان نظرية تطور اللغة مسألة قد قتلت بحثا وتدقيقا، لا يماري فيها احد ممن له المام بعلوم اللغة وتاريخها. وهذه العملية عملية التطور والخضوع للبيئة، ومسايرة ضرورات العصر، والتكيف بحسب ما توجبه حاجاته سنة كونية تتسلط على كل شيء وتجرف امامها كل ما تجده، لا يشذ من ذلك شيء ففي الفرد كما في المجتمع نشاهد كل شيء يخضع لسنة التطور بشدة عنيفة وسرعة فائقة.

واذا حاولنا ان نفهم التطور في لغتنا العربية فليس معنى ذلك ان لغة عصر باجمعها تموت وتضمحل، كما هو واقع في اللغة اللاتينية التي ليس بينها وبين اللغات الحاضرة اي ارتباط سوى الصلة العلمية والتاريخية:

من المجد جميعه، ففخر برجولته واعتد بقوته وحرص أن يزيف من يقف في طريقه. فالمتنبيء لم يكن بهذا الشاعر الذي يرتجل القصيدة البديعة المعاني المنسجمة التراكيب فحسب، بل كان يضيف الى تلك الشاعرية الفياضة احساسا عميقا بقوة نفسه، وطموحا غريبا الى كل شيء تصوره الحياة رفيعا ومثلا من المثل العليا.

واليك الخلاصة: لقد طويت ديوان شاعرنا وانا اردد هذا التساؤل أي احساس يصدر هذه الحكمة الرائعة، واية نفس تعتد بقوتها الى هذه الدرجة، وأي روح يطمح هذا الطموح؟؟. ان هو الا عظيم لم يفسح له الدهر مجال الحياة الا بمقدار، فلم يتبوء الارتبة شاعر ولكن أي شاعر هو؟.. هو شاعر النفس العظيمة، خالد ما خلدت نفس الانسان، وكفاه ذاك فخرا وعظمة.

سعيد حجي

صلة الاشتقاق والاخذ، تلك اللغة التي اذا تكلم بها احد فى عصرنا الحاضر يعتبر ناطقا بلغة اهل الكهف او متكلما بلغة ما قبل التاريخ وانما نعني بهذا التطور فى اللغة استعمال جمل اوكلمات فى عصر وشيوعها بين علمائه وادبائه حتى تاخذ اوفر نصيب من الرواج والانتشار ثم انقراض هاتيك الجمل او الكلمات فى عصر آت، حتى لينبو عنها الذوق ويتوهم السامع انها من لغة اجنبية. وبحسبنا ان نذكر مثالا واحدا من ذلك: «تبهنس» في القصيدة البشرية فقد كان لهذه اللفظة شأن واستعمال شائع عند شعراء الجاهلية ويوم قالها بشر، أو انتحلها من نسبها له، وكان لها فى ذلك الموضع جمال ورونق، ولاكنها لا تليق لهذا العصر ولا يستعملها الشاعر او الكاتب الاعلى قصد الاغراب والابانة عن معلوماته اللغوية واستظهاره لمواد القاموس، وكذلك لفظتا الوطس واليرمع في بيت المتنبى: تطس الخدود كما تطسن اليرمعا - والوطس: الدق، واليرمع الحجارة الرخوة. والمعنى: تدق الخدود كما تدق الحجارة الرخوة. ولم يكن هذان اللفظان بالمستعملين في عهد المتنبى. وانما حشاهما فى شعره بقصد الاغراب والابانة عن اطلاعه الواسع في اللغة.

الشعر الحي

تنوعت الآراء وتعددت مذاهب الكتاب من شرقيين وغربيين في بيان حقيقة الشعر والمراد منه، وانتشب الخصام على اشده بين هؤلاء، ونشأ عن هذا الجدال الطويل العنيف ما يسمونه مدرسة اللفظ ومدرسة المعنى. والاولى تعنى بترصيف الالفاظ وموسيقيتها وتراعى البديعيات، وتوثر اللفظ الفخم والشكل الجذاب، مضحية في سبيله بالمعنى، وغير معيرة إياه شيئاً من عنايتها. حتى لربما تقرأ قطعة منمقة يبهرك طلاؤها

الخارجي ولاكنك اذ تبحث عن المؤدى من هذه القطعة تخرج ـ كما يقولون ـ بيد فارغة واخرى لاشيء فيها. والطائفة الثانية وهي مدرسة المعنى تحصر كل همها فيه ولا تبالي بشكل اللفظ، بل ربما كان قاصرا عن المعنى الذي يرومه الشاعر، ونرى ان في كل من المذهبين اجحافا وانما الشعر، والشعر الحي، هو المعنى البديع في اللفظ الرائق المنسجم. وكل من له نظر صادق في الادب العربي، وتذوق حق لمراميه يدرك ان الشعر انما هو خلجات الشاعر وخواطره يسجلها سواءا كانت تلك الخواطر تعبر عن عواطفه الخاصة، او عن فكرة امتلأ بها ايمانا، او عن نزعة سائدة في عصره، وانما الشعر تسجيل نفسية الفرد او المجتمع في زمن ما وتخليدها، كما تعمد ريشة الرسام الماهر الى منظر ساحر من مناظر الطبيعة، فتسجله في صورة طبق الاصل، تبدع فيها ما شاء لها الابداع وتضفى عليها من عبقريتها والهامها ما يضمن لها البقاء والخلود على كر الاحقاب. وما سوى ذلك فهو كلام موزون وهوس من القول وتهريج.

فكيف نجد تلك اللغة التى يخاطبنا بها ابو الطيب من وراء عشرة قرون كاملة؛ اهي لغة الصاحب بن عباد والقاضي الفاضل والحريري لا نقرأها الا للفائدة التاريخية، وحين ندرس أدب اللغة العربية؛ ام هي فوق ذلك تخطت تلكم القرون العشرة على كاهل الدهر وانفه راغم، فكانت لغة عصرنا كما كانت لغة عصر المتنبى وكان شعره منارا نهتدى به كما انار القرن الرابع، ولعله لا يزال ينير السبيل أمام الاجيال المقبلة؟ لا يسع الباحث المنصف الا ان يجيب بالشق الثاني ويقول معنا ـ: «ان المتنبى شاعر هذا العصر، كما كان شاعر كل عصر قبله منذ الف من السنين، فما السر في ذلك اذن؟ وما السبب المباشر في هذه الحياة الخالدة

التي اكتسبها شعر المتنبي دون كثير ممن قبله وممن بعده؟

اننا نرى لذلك سببين اساسيين: احدهما شخصيته الجبارة لما فيها من حيوية وقوة. فقد انسكبت تلك الشخصية القوية في شعره، وانسجمت في كل قصيدة وفي كل بيت منه، فطبعته بطابع القوة، حتى انك لا تكاد تحس في شعره الا الحديد والنار والدماء الفائرة، تحدوها همة فعالة، تحاول استنزال النجوم من عليائها لتحل محلها. ولعلها بعد ذلك غير راضية، ومن العبث ان نحاول التدليل على هذه الشخصية، فانك لتلمس آثارها واضحة في كل شطر من قصائده. وانما نذكر على سبيل المثال:

عش عزيزا اومت وانت كريم　　بين طعن القنا وخفق البنود

فرءوس الرماح اذهب للغيظ　　واشفى لغل صدر الحقود

لاكما قد حييت غير حميد　　واذا مت، مت غير فقيد

فاطلب العز في لظى ودع الذل　　ولو كان في جنان الخلود

يقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع بخنق المولود

وتتمرد هذه الشخصية فتابى الا ان يكون مجد آبائه مستمدا من مجده، كما يابى الا ان يحملنا على الاعتقاد بانه غريب في هذا الوجود، لعدم من يضارعه في عليائه، ولقد يغالى في تقديس هذه الشخصية الجبارة الى حد يفتح باب الريب في عقيدته ويحمل كثيرا من النقاد على رميه بالزندقة والاستهتار بالدين كما يقول في هذه القطعة الفجة:

اي محل ارتقى　　اي عظيم أتقى

وكل ما قد خلق　　الله وما لم يخلق

محتقر في همتى　　كشعرة في مفرقى

وثاني السببين الهامه الصادق، وخياله الخصب في ابتكار المعاني الرائعة

وقوة الارادة على ابداع تلكم المعاني فيما يصلح لها من الالفاظ الشعرية وذلكم الخيال الذي برز به معاصريه، وجعل ابا العباس النامي الشاعر يعترف بانه: «قد كان بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت اشتهي ان اكون سبقته الى معنيين قالهما، ما سبق اليهما. اما احدهما فقوله:

رماني الدهر بالارزاء حتى   فؤادي في غشاء من نبال

فصرت اذا اصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله

في جحفل ستر العيون غباره   فكأنما يبصرن بالآذان

هذان البيتان، ايها السادة، هما اللذان جعلا من المتنبي، فيما نرى، شاعر الخلود، واجلساه على عرش الشعر على كر الاعصار، حتى ليقول بحق: انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وقد صدق تنبؤه، فلا يزال الخلق الى يومنا يسهرون لاستكناه مغازي شعره ويختصمون، وارى ان هذا سيستمر زمنا ليس باقل من الذي فات. يحدثنا ابن فرجة قال: «قرأت على ابي العلاء، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب، فقلت له يوما في كلمة: ماضرابا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة اخرى اوردتها، فأبان لي عوارها ثم قال: لا تظن انك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب ان كنت مرتابا. وهأنذا أجرب ذلك منذ زمن، فلم اعثر بكلمة لو ابدلتها باخرى كانت أليق بمكانها. وليجرب من لم يصدق يجد الامر على ما اقول...» وناهيك بها شهادة من شاعر العربية الكبير ابي العلاء. وقد كان ابو العلاء نفسه اذ اذكر الشعراء يقول قال ابو نواس كذا، قال البحتري كذا، قال ابو تمام كذا فاذا اراد المتنبي قال قال «الشاعر» كذا

تعظيما له!..

وكثيرا ما يغمر الشاعر في عصره فلا يبدو فضله للناس الاحين يقضي نحبه، ولكن شاعرنا لم يكن من اولائك الافراد العاديين، فقد كانوا يتخطفون شعره ويتلقفه النقاد بالنقد والتقريظ ويسري مسير الشمس في الآفاق. حدث الربعي: ان بعض اصحاب ابن العميد قال: «دخلت عليه يوما قبل اتصاله بالمتنبي فوجدته واجما، وكانت أخته قد ماتت عن قريب، فظننته واجدا لاجلها، فقلت لا يحزن الوزير، فما الخبر؟ قال: انه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في ان اخمد ذكره. فقد ورد علي نيف وستون كتابا في التعزية، ما منها الا وقد صدر بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى اخماد ذكره؟ فقلت له: القدر لا يغالب، الرجل ذو حظ من اشاعة الذكر واشتهار الاسم، فالاولى أن لا تشغل فكرك بهذا الامر.» واذا لاحظنا انه لم تمض مدة طويلة بين قرض المتنبي لهذه القصيدة ووقوع هذه الحادثة، كان ذلك ادعى الى الاعجاب وادل على مبلغ صحة قوله لسيف الدولة:

وعندي لك الشرد السائرا ت لا يختصصن من الارض دارا
قواف اذا سرن عن مقولي وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

وبعد فالشعر الخالد هو الذي يستطيع أن يسيطر على اوضاع الطبيعة ويصرفها كما يريد، فيعمد الى صورة مشوهة ممسوخة كصورة كافور «عبد خصي بطين، مشفره نصفه، تكاد تحسبه مختلا من الشقوق التي

فى رجليه وهو حافى القدمين يخاله من رآه أمة، يعمد المتنبى الى هذه الصورة ويضفى عليها من فنه الخالد، فيمثلها فى ذهننا اروع ما تكون والطف ما تكون. ونحن اذا رضينا عن هذه الصورة الشعرية الجذابة فانما رضانا من الناحية الفنية. وان كنا ناخذ عليه تغاليه فى المدح حتى لا يبالي بالحقيقة، وقابل بين تلك الصورة التى ذكرنا وبين ما تستفيده من هذه القطعة لترى مبلغ اقتداره على القول، وعبقريته الفذة:

انما يفخر الكريم أبو المسك بما يبتنى من العلياء
وبأيامه التي انسلخت عنه، وما داره سوى الهيجاء
وبما اثرت صوارمه البيض له فى جماجم الاعداء
وبمسك يكنى به ليس بالمسك، ولكنه اريج الثناء
تفضح الشمس كلما ذرت الشمس، بشمس منيرة سوداء؟!
ان فى ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزرى بكل ضياء
انما الجلد ملبس، وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء
كرم فى شجاعة، وذكاء فى بهاء، وقدرة فى وفاء
من لبيض الملوك ان تبدل اللون بلون الاستاذ والسحناء؟

وهنا يلذ لنا ان نشير إلى بحث طريف أثاره الدكتور هيكل «فى سر الاحتفال بالمتنبى دون غيره من الشعراء، مع أن فيهم من يضارع المتنبى قوة، ومن يفوقه رقة، ومن يعلو فنه على فن المتنبى علوا كبيرا...» ويرجع سر هذا الاحتفال الى ما يمتاز به شعره من التعبير عن الآمال التى تجيش بها صدور ابناء العروبة اليوم دون غيره. ونلاحظ على الدكتور ان ليس ذلك كل السبب الذى لولاه ما كان الاحتفال، فانا نرى – مع الاعتقاد بان لشعره القومي اثرا فى تكوين هذا الاحتفال –

أن لشخصيته الفذة وما خلفه للعالم العربي من ميراث قيم اثره البارز ايضا. وها إن مجلة الرسالة قد رددت صدى الدعوة التي بعثتها مجلة «المغرب الجديد» إلى الادباء والشعراء فى الاقطار العربية للاحتفال بشيخ الكتاب وامام الادباء «ابى عمر والجاحظ» واقامة ذكراه الاكثر من الالفية. ولا اخال الا ان الاقطار العربية ستهب عن بكرة ابيها للمشاركة فى هذا الاحتفال. فاية عاطفة قومية يبعثها بيان الجاحظ فى نفوس الشباب اليوم، يا حضرة الدكتور؟ وأي شعور يسود ابناء العروبة اليوم، يعبر عنه ادب الجاحظ؟ لا نرى مبررا لذلك الا شخصيته البارزة وما اجدت على العروبة فى عالم البيان من رقي فى الاسلوب، وبلاغة في التعبير. تلك الشخصية التي تأثرها الكتاب منذ ما ينيف على العشرة قرون ولا يزالون يتأثرونها الى اليوم.

رسالة المتنبى في العصر الحاضر

أدى بنا البحث فيما سبق الى السببين المباشرين الذين رفعا المتنبى الى عرش الخلود. واذا نظرنا الى ظروف الشرق الحالية وما هو عليه من الحالة الاستثنائية التى يقاسى فيها من أوربا الامرين نجعل من شعره القومي سببا ثالثا لذينك السببين. فان المثل العليا التى تجيش بها صدور ابناء الشرق ويسعون الى تحقيقها: من كسر قيود الذل، وعدم الرضا بالعيش المختنق، وطموح الى اقصى مراتب العز واعلى مناصب الكمال، وما يعترض ذلك من عقبات لابد فى تذليلها من التضحية بكل غال نفيس نجد شعر المتنبى خير ترجمان لها واقوى معبر عنها، واحسن مرشد فى هذه الحياة الشائكة المظلمة التى يضل في مفاوزها اكبر عارف ماهر. فلا غرو اذا اتخذ الشباب اليوم من تجارب المتنبى فى الحياة، ومغامراته

المحفوفة بالاخطار، ومن نتائجها التي ضمنها شعره، دروسا ينتهجونها في كفاحهم. ومنارة يهتدون بها في هذا الطريق المخوف. ومن العبث محاولة استقصاء ما ورد من ذلك في شعره، فانك لا تكاد تمر بصفحة من ديوانه دون ان تجد لهذه الناحية اثرا قويا فيها.

ثم هو يخط للشباب اليوم الطريق الموصل الى الحياة الحقة ويرسل صرخة لهذا الشباب المائع الذي يتسكع اليوم في اقطار الشرق، ويحيى حياة الذلة والهوان:

ولا. تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتركك في الدنيا دويا كانما تداول سمع المرء انمله العشر

المتنبي شاعر مجدد

وليست هذه الضجة القائمة اليوم في بلاد الشرق العربي بين الجديد والقديم، وانصار التجديد والمحافظين ـ باقل منها في عصر المتنبي، بسبب الطريقة التي انتهجها في شعره، وحاول بها التجديد في الشعر العربي والسير به في مهيع يتناسب وروح العصر، ونبذ التقاليد العتيقة التي اناخت بكلكلها على الشعر العربي زمنا. فأثار بعمله ذلك ضجة عنيفة بين مؤيديه ومنتقديه وخصومة شديدة بين انصاره وخصومه، وتكونت ازاء شعره مدارس، منها المقرظ المعجب، ومنها الناقد المتتبع لعوراته. وما ذاك الا للحدث الذي احدثه في الشعر العربي. وليس التجديد في معناه وحقيقته الاضرورة تدعو اليها مسايرة حاجات العصر وتفرضها البيئة، من اعراب عما تشعر به النفوس من الرغائب، ويسود المجتمع الذي يعيش فيه من النزعات وتسجيل صحيح للحالة الاجتماعية. خرج أبو الطيب في شعره عن مالوف الشعراء في كثير من اغراض

الشعر وسلك طريقا غير ما سلكوه. ففي المدح مثلا نجده قلما يبتدىء بذلك الغزل المائع وذلك التشبيب التقليدي الذى اولع به الشعراء قبله. ولاكنه يبتدىء بمثل هـذه المطالع القوية: واحر قلباه ممن قلبه شبم على قدر أهل العزم تاتى العزائم: على انه اذا مدح لا يجنح الى الذل والهوان بين يدي ممدوحه، كما هو شأن الشعراء الذين تضمحل شخصيتهم امام ممدوحيهم، بـل نجده يثور على هذه التقاليـد ويخاطب ممدوحيه مخاطبة الصديق لصديقه.

ان كان يجمعنا حب لغرتـه   فليت انـا بقدر الحب نقتسم

يا اعدل الناس الا فى معاملتى   فيك الخصام وانت الخصم والحكم

ويشترط عليهم شروطـا ثقيلة الوطأة، ويضطرهـم الى الخضوع اليهـا. يحدثنا الرواة: انه لما اتصل بسيف الدولـة الحمداني اشترط عليه لكي ينشده مـدائحه ان لا ينشده الاجالساء وأن لا يكلف بتقبيـل الارض بين يديه، وهذا حدث جديد مخالف لسنة الشعراء المتصلين بـأبواب الملوك لم يتسن مثله لغير شاعرنا الخالد. كما يذكر المؤرخون انه لما اتصل بكافور الاخشيدي صاحب مصر ابى أن ينشده الا وهو لابس خفيه، متقلد سيفه ومنطقته. وما ذلك الا من تلك النزعة التي سادت المتنبى وتحكمت فى شئون حياته. ومتى رأينا شاعرا سمت همته الى مقام الملك بل اكثر من ذلك الى مقام النبوءة؟ على انه فوق ذلك لا يجود على ممدوحيه بسوى الابيات المعدودة ثم يملأ القصيدة بذكر مفاخره ومحاسنه. فان بقي له موضع فى القصيدة شغله حكما وامثالا. واذا نظرنا الى غزله ـ على قلته ـ فانا لا نجده يستعطف ويسترحم ويبذل مهجته حتى الفناء في سبيل رضى حبيبه. بل يفرض شخصيته أيضا فى هذا الموطن ويريد

المساواة التامة فى مبادلة الحب:

إن التى سفكت دمى بجفونها | لم تدر أن دمى الذى تتقلد
قالت وقد رأت اصفرارى من به | وتنهدت فاجبتها، المتنهد

ولم يقتصر على هذه الناحية، فهو يخالف الشعراء فى موازينهم التى اجمعوا عليها، فأتى بموازين تخرج عن كل ما اصطلحوا عليه، ونجد لذلك نموذجا فى كتاب يتيمة الدهر للثعالبي.

هذه نظرات موجزة فى بعض نواحى التجديد فى المتنبى، ولا ينبغي أن يعزب عن البال اننا لم نقصد من التجديد عند أبى الطيب انه عمد الى اوضاع الشعر فى اللغة العربية فقلبها رأسا على عقب، وانما هو تجديد جزءي كان له اثره البارز فى حياة المتنبى وفى الشعر العربي من بعده.

وبهذه المناسبة نعلن أسفنا العميق على ان لم يوجد من ابناء العروبة من يقوم بترجمة شعر المتنبى الى اللغات الاوربية الحية، ونعلن مع أمير البيان انه لو اتيح لشعر المتنبى ان يتجاوز آفاق الشرق الى العالمين الجديد والقديم لتقبلاه بما يستحقه، ولعد فى طليعة الشعراء العالميين الخالدين الذين تستفيد منهم الانسانية، حيثما سارت آثارهم ولا تقتصر فائدتهم على طائفة دون اخرى او جيل دون جيل.

عبد الهادى الشرابي

أنا الذي بين الإله به الا | قدار، والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها | وغصة لا تسيغها السفله
إن الكذاب الذى أكاد به | أهون عندى من الذى نقله
وسامع رعته بقافيــــة | يحار فيها المنقح القوله
ويظهر الجهل بى وأعرفه | والدر در برغم من جهله

المتنبي

مذهب في الحياة – موقفه من القومية العربية

ابو الطيب المتنبي شاعر خالد اتيح له من الشهرة الادبية وبعد الصيت ما لم يتح لشاعر سواه في مختلف العصور، ولعل من اسباب هذه الشهرة شيوع الحكمة في شعره، وسداد الفكرة في جميع ما يقول، والتعاظم المتناهي والتكبر الشديد اللذين تلمس اثرهما الظاهر في اغلب قصائده، وقد افترق الناس قديما وحديثاً في امر هذا الشاعر فرقاً، وذهبوا في الحديث عن شعره وشرح ديوانه مذاهب شتى، وكتب النقاد عنه ما لعلهم لم يكتبوه عن غيره من شعراء الجاهلية والاسلام، فانهم تناولوا حياته وشعره من سائر مناحيهما فاشبعوهما درساً وتمحيصا، وتصرفوا في البحث ايما تصرف، حتى انه ليخيل الينا انه لم يبق لقائل بعد ما يقول، ولاكن من خصائص الادب الخالد ان يكون مكان القول فيه ذا سعة، وان يجد الناس فيه دائماً متعة وغذاء كما يجدون ذلك في مختلف مظاهر الطبيعة المجلوة من قمر يتلألأ، وزهر يضوع، وحمام يغرد، وبحار تزبد، وجبال تناطح السماء، وفي كل وقت وحين يتناول قلم الكاتب وريشة المصور مظاهر الوجود الخلابة باغتباط، ذلك لأن الجمال الخالد كنز لا يفنى ومعين لا ينضب، ولأن الناظر يلقى في هذا الجمال شيئاً من نفسه، ويبحث من بين ثناياه عما يوافق هواه، فتتبدى له الطبيعة دائماً جديدة رغم قدمها، متنوعة رغم وحدتها، فلا غرو اذا تجرأنا اليوم على الكتابة في المتنبي بعد ما كتبت فيه اسفار وملئت منه خزائن ودوى صيته في اقصى الارض.

ومن الابحاث التي يحسن بالكاتب ان يتناولها عن المتنبي بيان ما

يحس به «الشاب المغربي» لدن قراءة ديوانه، ومـا يجد فيه من افكار يستحسنها او يستقبحها وما يلقى لديه من متعة أو غيرها وما يثير ديوانه فى نفس المطالع من مختلف العواطف حسب البيئة والتربية وما يختلج فى الصدور من آمال ورغبات. ولسنا نحاول ان نقوم بهـذا البحث المترامى الاطراف والمتشعب الطرق، وانما نريد ان نكتب كلمات وجيزة تلبية لطلب مجلتنا المحبوبة، ونحصرها فى نقطتين من النقط التي تعرض لمن يحاول هذا البحث باسهاب، الاولى مذهب المتنبى فى الحياة اي كيف يتصور الحياة، والثانية: موقفه من القومية العربية.

إن المتنبى ينظر الى الدنيا نظرة بسيطة للغايـة فهو لا يـرى فى الناس خيراً ويقول فيهم:

اذا ما الناس جربهم لبيب ... فانى قد اكلتهم وذاقـا
فلم أر ودهم الا خـداعـاً ... ولـم ار دينهم الا نفـاقـا

ويقول ايضا:

من خص بالذم الفراق فاننى ... من لا يرى في الدهر شيئاً يحمد

وانه ليحط من قدر الانسانية الى درجة انه يعتبر كل الخير فى أن يترك الناس القبيح، وفى ذلك يقول:

انـا لفى زمـن ترك القبيح بـه ... من اكثر الناس احسان واجمال

فهذا ما يشاهده فى الدنيا، واذا بحث القارىء عن العلة وزاد تعمقاً يجد لدى المتنبى افكارا واضحة، هى نفسها التى انتجت النظرية العلمية فى هذا العصر الذى يقول بتنازع البقاء، ومن ذاك قوله:

انمـا انفس الانيس سبـاع ... يتفـارسن جهـرة واغتيـالا
من اطاق التماس شيء غلابـا ... واقتساراً لـم يلتمسه سؤالا

كل غاد لحاجة يتمنى ان يكون الغضنفر الرئبالا

ويقول في طبيعة الانسان:

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ويشير الى ان السيادة تقتضي المشقة، ولولا المشقة لساد الناس كلهم،
ويرى كتبرير لهذا التنازع أن: مصائب قوم عند قوم فوائد، فهو يبدو
له الوجود بهذا الوصف من تنازع المصالح وتخاطف الغنائم. وينتج من
ذلك انه لا يرى في الدنيا من عمل يهيم به ذو النفس السامية، ويسعى
لاجله اهل الهمم العالية، إلا الغلبة والتفوق، وذلك لا يكون الا بالقوة
وقوة السيف خاصة، فذلك فى نظره هو المجد الحقيقي وهو المثل الاسمى
في هذه الحياة، وهاته الفكرة غمرت المتنبى واستولت على كل جوارحه
دون غيرها من سائر متناولات العقل والعاطفة، فتجلت فى كل قصائده
بوصف بليغ للمعارك واشتباك الجيوش وتطاحنها قلما نجده في غيره،
حتى ان القارىء يحس ان المتنبى يكتب بقلبه وكأنه يلذ التذاذاً لذلك
المرأى الذي يستفز القلوب الرقيقة: مرأى تكدس الارض بالاشلاء وتقاطر
الارماح بالدماء، ومن ابياته المتعددة التى نجد فيها هذه الظاهرة قوله
لسيف الدولة:

وقفت وما فى الموت شك لواقف كانك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

وكم يعدد لنا التاريخ من قواده المشهورين من كان يبكى إثر المعركة
ضحاياه! واسمع لهذا الوصف ايضا:

تجرى النفوس حواليه مخلطة منها عداة واغنام وآبال

اي تختلط دماء الاعداء بدماء الذبائح وتجرى حواليه فلا تفرق بينها،

ثم من ابيات كثيرة هذا البيت الذي يتبع به الشاعر القاسي القلب سيف ممدوحه يوغل في جسم الخصم حتى يتكسر فيه:

القاتل السيف في جسم القتيل به   والسيوف كما للناس آجال

ثم انظره يهجو كافوراً ويتمنى فتى يطيح رأسه ازالة للشكوك:

ألا فتى يورد الهندي هامته   كيما تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها   من دينه الدهر والتعطيل والقدم

حتى في معرض الوصف لبحيرة لا ينى عن ذكر الجيش والوغى ولا ينسى الهازم والمهزوم:

والموج مثل الفحول مزبدة   تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها   فرسان بلق تخونها اللجم
كانها والرياح تضربها   جيشا وغى هازم ومنهزم

هذا واضح في ديوان ابي الطيب، ومن تاريخ حياته ايضا - ولا يحتاج الى بسط وتفصيل، وانما يكفي فيه ان تورد الابيات فتغنى تماماً عن كل شرح وايضاح، إن هو الاحب الغلبة والقهر والقوة والجبروت، وذلك مجرد من كل عاطفة قلبية وليس فيه من اسف عما هو كائن، ولا اثر للعاطفة او الفلسفة او الدين، فابو العلاء المعري - وهو من المعجبين بالمتنبي - ينظر الى الناس كما ينظر اليهم ابو الطيب، ولاكن مشاهداته تحدوه للدعوة الى الرفق والرحمة، ونبذ العداوة والبغضاء، والعمل لنشر السلام بين الانام، وكم يبدي تكدره من الظلم، وكم يتمنى ان لا يكون. وهل أتاك نبؤه لما ذهب الى صالح بن مرداس يشفع في اهل حلب؟ فان ملاقاته بالقائد الشديد لم تثر في نفسه سوى الكدر العميق من تلاقي الضعيف مع القوي. والشواهد في ذلك عديدة. وحسب المطالع ان

يقابل من جملة الامثلة الكثيرة في هذا الباب بيت ابى الطيب :

يدفن بعضنا بعضاً وتمشى   اواخرنا على هام الاوالى

بابيات المعري الشهيرة التى من جملتها :

صاح هاذى قبورنا تملأ الرحـب   فاين القبور من عهد عاد

خفف الوطأ ما اظن اديـم الارض   إلا من هذه الاجساد

سر ان اسطعت في الهواء رويداً   لا اختيالا على رفات العباد

رب لحد قد صار لحداً مراراً   ضاحكاً من تزاحم الاضداد

ودفين على بقايا دفيـن   في طويل الازمان والآباد   الخ

فالمتنبى يهتم للمقابر من حيث انها محل دفن وتراكم اجسام وميدان دفع الناس بعضهم لبعض فحسب، بينما فيلسوف المعرة يلاحظ ذلك ولا يكتفي بالملاحظة بل يستعملها للارشاد والموعظة الى احترام الموتى وتعظيم الاجداد، وللباحث ان يقابل قصيدة المتنبى في تهنئة سيف الدولة بالعيد :

لكل امرئ من دهره ما تعودا   وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

وقصيدة البحتري يهنىء المتوكل على الله في عيد ايضا ومطلعها :

بالبر صمت وانت افضل صائم   وبسنة الله الرضية تفطر

واختلاف القصيدتين بين، والبحتري اذا ذكر عزة الملك فعلى غير ما نعهده من المتنبى، واسمعه يقول للخليفة :

اظهرت عز الملك فيه بجحفل   لجب يحاط الدين فيه وينصر

والقصيدة تحتوى على وصف بديع يطابق تماماً مراسيم العيد التى ما زالت جارية بهذه المملكة المغربية كما فى قوله :

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا   لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت الى المصلى لابساً   نور الهدى يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر

هذا هو المتنبى. ان هو الا القوة القاهرة، القوة المادية المجردة عن كل تهذيب، يشغف بها الشاعر ويتغنى بها، ويتوق الى الحصول عليها للتغلب والتفوق على الناس واستخدامهم فى بناء صرح من المجد يرفع ذكره فى الحياة ويبقى لاسمه دوياً فى العالم بعد الممات.

وقد قابله احد كتاب مصر المشهورين بنيتشه الالماني[1] وليس في نظرنا من داع يدعو الى هذه المقابلة، فان القوة عند المتنبى طبيعة وطموح وحاجة في النفس يريد بلوغها، وتمسك محض باسباب الحياة، الى حد انه لم يجعل بينها تمييزاً، فقد استجدى بشعره، وتكالب على المال، وطوحت به الاقدار فى كل مكان رغبة فى الثراء ولو أدى الى المهالك:

اذا لم تجد ما يستر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا

واذا تحدث عن المجد قرنه بالمال كأن المال هو المقصود. ومن ابياته:

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وعند الثانى نظرية علمية يجب ان يبنيها اهلها الذين يقولون بتنازع البقاء وبقاء الاصلح على الفكرة التى نجدها فى شعر المتنبى وغيره من الشعراء وفى هذه الحياة التى هي ميدان كفاح وصراع مستمر. والآن وقد بينا باوجز ما يكون هذه الناحية من شعر المتنبى فلعل موقف الشاب المغربي ازاءها لا يكون فيما عدا الطموح والعظمة موقف استسلام واستحسان لمذهب ابى الطيب في الحياة. والشاب المغربي كله عاطفة فياضة وتضحية من اجل المجتمع وسعي وراء المثل العليا. فاذا قرأ المتنبى فانه لا يجد تلك المتعة الروحانية التى يميل اليها شبابه الزاهر وما يضمه بين جوانحه

(1) انظر: مطالعات في الكتب والحياة للعقاد ص: 156

من ضمير حي ونفس طموحة الى المجد النزيه. والناحية الثانية التي قد يهتم لها الشباب هي موقف المتنبي ازاء القومية العربية، والقومية كلمة كثيرة الاستعمال في هذا العصر. فهي بنت القرن التاسع عشر، وكثير من الاوروبيين يأسفون لنشوئها حتى ان بعض الكتاب منهم يرون ان اوربا في القرون الوسطى التي كانت لها وحدة الدين والامبراطورية هي ارقى من اوربا العصرية وان النظام الغربي تأخر وتقهقر عما كان في تلك القرون. ونحن نقول بكل صراحة اننا بالاحروية ضد القوميات (الضيقة المعادية للغير) خصوصاً وان لنا ديننا جامعاً لشئون الحياتين وقد سبق في التاريخ أن توحدت تحت رايته عناصر مختلفة لعمل واحد، وكون الجميع مدنية اتصلت حلقاتها، وامتزجت مظاهرها حتى انها لايمكن ان تعرف لجنس دون آخر من شتى الاجناس التي شاركت في تكوينها وتسمت بالحضارة الاسلامية الباهرة: واذا وجب الاتيان بمثال قريب لما في الدين الاسلامي من استطاعة لتكوين الوحدات على غير الاسس التي لاترى القومية (الضيقة) بدونها القوة والحياة، فحسبنا ان نستشهد بالمغرب نفسه هذا بلدنا الامين فانه رغم اتساعه وتنوع عناصره المنتشرة من تونس الى مراكش في مختلف البقاع لاتوجد مملكة من ممالك العالم المتمدن - خلافا لما يلقن في المدارس - لها بعض ماله من القدم في وحدة التاريخ والعمل والتفكير، وليس المقصود هنا تناول هذا الموضوع، وانما اردنا ان نشير عرضاً فقط الى راينا في مسالة خطيرة تشغل الآن بال المسلمين في بعض الجهات، فان القومية ايضا على النمط الغربي دخلت بلاد الاسلام المشغوف بعض اهله بالتقليد الاعمى لزهدهم في العلم الصحيح الذي يبعث على التعمق في درس المسائل وتفهمها، وهكذا زحزحت

القومية الجامعة الاسلامية في بعض الممالك، وحدثت ايضا جامعات عنصرية من طورانية وايرانية وعربية، واخيراً قام بعض المصريين بدورهم يبحثون عن نسب فرعوني الصق بمصر فيما يظنون. ومنذ أشهر معدودة كان الفرس يحتفلون بالذكرى الالفية للشاعر الشهير ابى القاسم الفردوسي، وقد اقاموا له فى طول البلاد وعرضها مهرجانات فخمة كان لها في كل انحاء الارض صدى عميق، ومما زاد هذه المهرجانات عظمة وذيوعاً وكساها صبغة عالمية تشريك الدوائر العلمية فيها من الاقطار الاجنبية، باستدعاء وفود لحضور الحفلات والمشاركة فى بحث انتاج الشاعر ودراسته، والذى دفع الفرس الى ذلك خدمة فكرة القومية التى هي اتجاههم الجديد فان الفرس كرموا فى الفردوسى محيي اللغة الايرانية بعد الاندثار وباعثها من الموت للتغنى بتاريخ ايران وامجاده، وقد قرأت من قريب حديثاً لنائب ايران بجمعية الشعوب بشأن هذا الموسم وذكر ان شعر الفردوسي اول ثورة من ايران على الروح العربية، وفى هذه الايام تنشر الصحف اخبار الانظمة الجديدة واستبدال الحروف العربية وغيرها!!

نعم قد كانت العربية انتشرت مع الفتوحات وتقلصت امامها لغات الاعاجم ثم جاء وقت ضعف فيه العرب، وقام صراع بين العرب والشعوبيين وضعفت الخلافة وقامت إمارات جبارة، وذلك العهد يشمل القرن الثالث والرابع الذي كان فيه امثال الفردوسى والمتنبى وغيرهم من مشاهير الشرق، اخطر عصر في الاسلام: كان عصر المذاهب الفلسفية والدينية والاحزاب السياسية والمنازعات العنصرية، وهو كثير الشبه بعصرنا الحالى الذي نرى فيه الغرب امام حياة جديدة من سائر الوجوه وثورات عنيفة من كل النوحى وذلك العهد لم يدرس حق الدرس الى الآن الا قليلا، ولعل الله يوجد

من بين المسلمين من فيه الاهلية للقيام بهذا العمل الجليل، وفي ذلك العهد أي منذ الف سنة كان الناس في الشرق ينادون ايضا بالقومية، وهكذا يعيد التاريخ نفسه ولا جديد تحت اهاب السماء

فماذا كان موقف المتنبى فى تلك المعمعة؟ نجيب ان المتنبى كان قوميا ضيق القومية بكل معنى الكلمة ولا بدع فى ذلك. فقد ذكرنا شيئا عن تصوره للحياة وهو نفسية «العربى الجاهلى» وانما ينقصها ما فى طبائع عرب الجاهلية من كرم ونجدة وغيرهما من الخصال التى كنت تزين ارض الجزيرة رغم انها كانت ميدان الطبيعة الثائرة. وليس فى المتنبى اثر لتهذيب الاسلام، فهو بالنسبة لعرب الجاهلية لم يقتبس منهم الا الشجاعة والكبرياء والقوة، ومن حضارة الاسلام لم يستفد إلا القرطاس والقلم، وقد وصف نفسه فى البيت المشهور اصدق وصف اذ يقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وانت اذا درست ديوانه تجد صور البادية فى شعره غالبة، وفى نسيبه على قلته فى الديوان لا يريد الانساء البادية التى لم تعرف حمرة الشفاه ولاصبغ الحواجب وتوريد الخدود!

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
افدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولاصبغ الحواجيب
ولابرزن من الحمام ماثلة او راكهن صقيلات العراقيب

وهذا ايضا قد لا يعجب بعض الشباب المغربي الذين يرون جامعة الدين خيراً من الجامعة القومية (الضيقة) وكيفما كان اثر المتنبى فى قارىء شعره فان المتنبى شاعر عظيم ليس للعرب ولا للاسلام فقط، بل هو

اخـــلاق المتنبى

ابو الطيب المتنبى شخصية بارزة في تاريخ الادب العربي، وشاعر فذ ظهر في عصر كثر فيه الادباء والشعراء، فبذ بما أوتيه من براعة في النظم، وجرأة على القول وقدرة على استخراج المعاني الدقـاق، كل اولائك الشعراء الذين نازعوه البقاء على اختلاف مراتبهم وتنوع مشاربهم، واوتي من الحظوة لـدى الملوك والامراء، والرفعة في اعين القادة وكبار الادباء: ما ألب اعداءه عليه، وزاده هو طغيانـا وعتوا، ومع مـا اوتيه من حظوة، وقدر له من رفعة، وحظى به من صيت، فقد كان يرى ان له منزلة هي اعلى من ذلك بكثير، ولكن الدهر لم يساعده على الوصول اليها، والحصول عليها، أما حياة هذا الشاعر فقد كثر فيها القول وتعددت فيها الدراسات، وحسبنا في هذه الكلمة ان نلم ببعض اخلاقه مستندين - في غالب الاحيان - الى شعره، إذ هو المرآة الصافية التى تظهر فيها شخصيته جليا.

كبرياؤه وانانيته

أول ما يبده الباحث عن اخلاق المتنبى ذلك الكبر الـذى لا يقف عند نهاية، والانفة التى لا تحد بغاية، وتلك الانانية التي لا يعرف لها حد ولا يدرك لها مدى، كان المتنبى شاعراً وكـان يحب ان لا يشاركه في هذا اللقب غيره، لانه لا يرى على ظهر البسيطة من يستحق

ثروه عالمية وقد قال عن نفسه:

وما الدهر الامن رواة قصائدى اذا قلت شعراً اصبح الدهرمنشداً

وكيف لاينشد الدهر شعره وقد نظمه باشرف اللغات لسـان الوحـي الصادق ولغة القرآن الكريم؟

محمد بن عباس القباج

ان يطلق عليه سواه

خليلي انى لا ارى غير شاعر ... فلم منهم الدعوى ومنى القصائد

فاذا سألتموه : وما شأن اولائك الشعراء الذين خاضوا معه عباب القول ، ونازعوه قصب السبق ، وشاركوه في وفد الملوك ، اجاب انهم انما سطوا على شعره فسرقوا الفاظه وسلخوا معانيه ، فكانوا كالصدى الحاكى لصوته ، المردد لما يتغنى به من شعر وما يشدو به من مديح ، وبهذا فهو يرى من حقه أن تكون جائزة ما ينشدونه له لا لهم . أنصتوا اليه يخاطب سيف الدولة :

اجزنى إذا أنشدت شعراً فانما ... بشعري أتاك المادحون مردداً

ودع كل صوت غير صوتي فانني ... أنا الطائر المحكي ، والآخر الصدى

فاذا نوزع فيما ادعاه ، وأريد منه أن يجعل لاولائك الشعراء قيمة ، فينشد شعرهم ، ويسمع صوتهم ، ويروج ذكرهم ، أنف من ذلك أبو الطيب ، وشمخ بانفه ، وتوقدت نار كبريائه ، وأبى أن يجعلهم الا قروداً لا يستطيعون أن يحاكوه فى منطقه ، فضلا عن أن يدركوا شأوه فى الكلام :

يرومون شأوي في الكلام وإنما ... يحاكى الفتى فيما خلا المنطق القرد

فهم في جموع لا يراها ابن دأية ... وهم في ضجيج لا يحس به الخلد

ومن ذا الذي يستطيع أن يدرك شأو من لم تسمع منفثه بابل ، ولم يدرك شأوه أهل الجاهلية باجمعهم :

ما نال أهل الجاهلية كلهم ... شعرى ولا سمعت بسحري بابل

ولم يكن كبرياء أبي الطيب قاصرا على الطغام الذين لا يوبه لهم . بل الفضل له كل الفضل ، أن يترفع على الملوك وامثال الملوك ، وكل من هو

له ند، أو خيل له انه انفرد دونه بصفة تعلى من شأنه، وترفع من ذكره، ومظاهر هذا الكبرياء الارستقراطي في شعره كثيرة، انظروا اليه يخاطب سيف الدولة، تجدوه يخاطبه مخاطبة ند لند، ونظير لنظير، لا مخاطبة شاعر لملك يرجو عطفه ويطلب نواله:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلا نارب المعانى الدقاق

وكيف لا يجعله خدنا ويخاطبه هذه المخاطبة، وهو الذى قد اشترط عليه أول اتصاله به: أن لا ينشده مديحه الا وهو قاعد، وأن لا يكلفه تقبيل الارض بين يديه، فيقبل سيف الدولة كل هذا، ويتطلع الى ما يوشيه فيه من مدح[1]، على رغم من كان يموج بهم بلاطه من الشعراء المجيدين...! ومن مظاهر كبريائه ما حدث به أبو الفتح ابن جنى عن علي بن حمزة البصري، قال: «كنت مع المتنبى لما وردأرجان، فلما اشرف عليها، وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن، فضرب بيده على صدره وقال: «تركت ملوك الارض وهم يتعبدون بى، وقصدت رب هذه المدرة، فليت شعري ماذا يكون منه[2]، ويعني «برب هذه المدرة» أبا الفضل ابن العميد، وهو من هو فى الادب والرئاسة والمكانة...! ولا يقف كبرياء أبى الطيب عند هذا الحد، بل يتجاوزه ويبلغ به عتوه وطغيانه حتى يصبح كل أولائك الملوك فى نظره ارانب، وسواهم من الناس طغام، وما عيشه بينهم الا كمعدن الذهب بين الرغام:

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
ارانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيـــام

(1) عن الصبح ص35ج. (2) ايضاح المشكل لابي القاسم الاصبهاني (في خزانة الادب ص 142 ج 2)

ويظهر أن هذا الخلق وجد مع الشاعر منذ نشأته، وهو القائل في صباه:
أي محل ارتقى * أي عظيم اتقى * وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق *
محتقر فى همتى * كشعرة فى مفرق * وصحبه فى جميع ادوار حياته، حتى نسبوه بذلك الى الجنون، ولم لا ينسبونه الى الجنون، وهو قد انفرد بهذا الخلق الذى لم يشاركه فيه شاعر من الشعراء، سواء فى ذلك القدماء أو المحدثون...![1]

ولقد نشأ عن هذا الخلق فى ابى الطيب صفات عديدة، أهمها: اقتحام المهالك، وعدم التروى والنظر فى العواقب، والاعتماد على النفس، واحتقار الغير، وفقدان الثقة بالناس، وبالتالى اعتزاله الادباء، وانفراده عن مجالس الادب واندية المذاكرة، وعصره كما تعلمون فياض بالادباء، مملوء باندية العلم والادب...! وكان كبرياء هذا الرجل، واحتقاره للغير، وترفعه على الناس كافة، داعيا لتكالبهم عليه واهتمامهم بتقويض شهرته، وبالتالى تماجنهم به، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه[2]. واعجاب المرء بنفسه يشرع اليه أسنة الطاعنين، وتطاوله على ابناء جنسه يجمع عليه السنة الشانئين[3]، انظروا اليه وقد حل بدار السلام، وترفع عن مدح الوزير المهلبى، ذاهبا بنفسه مذهبها في الكبرياء والعظمة، ميمما ابا الفضل ابن العميد بارجان قاصدا بذلك ارغام الوزير المهلبى، فيشق على هذا أن يمر بحضرته شاعر كابى الطيب ثم لا يخلد ذكره بكلمة من كلماته، فتتقد نار الغيرة فى جوفه، ويغرى به شعراء بغداد، فيتماجنون به، ويتبارون في هجائه، ويسمعونه في عرضه كل ما يكره ان يسمعه...»[4]
ومن أولائك الذين اوقدهم كبرياء المتنبى وزهوه، الصاحب ابن عباد،

1) سرح العيون ص 20 (2) إيضاح المشكل في خزانة الادب ص 142 ج 2)، (3) عن الصبح ص 104) (4) اليتيمة ص 99 - 100 ج 1)

فانه بلغه مـا قاله أبو الطيب فيه لما وصله استدعاؤه: «إن غليما معطاء بالري يريد أن ازوره وامدحه ولا سبيل إلى ذلك[1]» فاتخذه بسبب ذلك غرضا يرشقه بسهام الوقيعة، ويتتبع عليه سقطاته، وينعى عليه سيئاته، وهو اعرف الناس بحسناته....![2]، ومن أولائك الذين وقفوا للشاعر بالمرصاد، أبو علي الحاتمي، وهو من الشخصيات البارزة فى بغداد ولكن أبا الطيب لم يقم له وقد حل بها وزنا، فشمر الحاتمي عن ساعد الجد، ولم يبق له هم الا تقويض ذكر هذا الشاعر، فلا يضمه ورؤساء الزمان محفل، أو يجمعه واعلام الادباء ندى، الا وينتهز الفرصة فينقده النقد اللاذع، ويسخر منه السخرية القارسة. ويذكر لنا ابن خلكان بعض تلك المناظرة التى يزعم الحاتمي انها وقعت بينه وبين المتنبى فى دار السلام[3] ثم يأتى بعده البديعى فيذكر لنا المناظرة بتمامها فى الصبح[4]، وتشتمل هذه المناظرة على نقد اخلاق المتنبى، وتنقيصه وذكر معايب شعره، والذى يظهر لى أن هذه المناظرة إنما هي من تلفيق الحاتمي ليس غير، ولم يكن فى الواقع بينه وبين المتنبى مناظرة، وانما كان قصد الحاتمي اهانته وتنقيصه واظهاره بمظهر العاجز الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضمن كل ذلك هذه المناظرة التى ينقلها عنه الرواة، ويحملنى على هذا الاسباب الآتية: 1) كون اسلوب هذه المناظرة اسلوب نـاقد متعصب، ينم عن احقاد وضغائن تختلج فى نفسه، لا أسلوب ناقد بصير مترفع عن الغرض، ويظهر لكم أثر هذا جليا في كل سطر من سطور المناظرة 2) كل ما أتى به أبو الطيب من شعره ـ على مـا يزعم الحاتمى ـ ليبين به عن ابداعه وتفوقه فى النظم، ويفحم به مناظره ـ إنما هو من متوسط

(1) الصبح ص 82، (2) اليتيمة ص 100 ج 1 (3) الوفيات ص 728 - 731، ج: 1) (4) من ص 71 - 80

شعره فى الاجادة، ويبعد كل البعد أن لا يأتى ـ وهو فى موقف المناظرة والدفاع عن النفس وقمع المناظر ـ بما يبلغ من شعره حد الابداع، ويكون من البلاغة فى الذروة، 3) يذكر الحاتمى انه سأل أبا الطيب عن الفرق فى اللغة بين التقديس والقداس والقادس، ويزعم انه اجابه بان معنى القدس فى اللغة هو الطهر، وكل هذه الاحرف ـ أي الكلمات ـ تؤول اليه، ثم يتخذ من هذا الجواب طريقا للتهكم على المتنبى، والسخرية منه، وأمر الحاتمى فى هذا عجيب، اذ كيف لا يفقه الفرق بين هذه الاحرف رجل لازم الاعراب سنين عديدة، واتقن اللغة وحفظ شواذها حتى قال فيه حاسده ومنافسه فى هذا الشأن أبو علي الفارسي ـ وقد سأله: كم جاء من الجموع على وزن فعلى فاجاب على الفور حجلى وظربى ـ: «ما رأيت رجلا فى معناه مثله، ولقد سهرت ليلة التمس لهذين الجمعين ثالثا فلم اجد[1]»، وحتى قال فيه الخالديان: «كان أبو الطيب من المكثرين فى نقل اللغة والمطلعين على غريبها، ولا يسئل عن شيء الا استشهد بكلام من النظم والنثر[2]»، 4) يذكر ايضا انه راج بينهما ذكر ابى تمام، فنقصه المتنبى وسبه، ثم أقسم بالله انه لم يطلع على ديوانه ولم يقرأ شيئا من شعره، ثم يزعم أن أبا الطيب نسى ما قاله واستشهد على عيب أبى تمام وضعف ملكته الشعرية بابيات من شعره...! وهذه الحكاية ظاهر عليها الوضع والاختلاق، والا فكيف يصدر هذا التناقض من رجل حاد الذهن، ذكي الفؤاد، سريع الخاطر مثل ابى الطيب المتنبى...! ثم كيف يتأتى للمتنبى ان ينكر الاطلاع على ديوان أبى تمام وينقصه هذا التنقيص الذى يذكره الحاتمى، وأبو تمام وحده يكون مدرسة شعرية

---

(1) نزهة الالباء ص 372 وبقية المصادر. (2) الصبح ص 80.

ليس من شك في ان ابا الطيب تاثر بها واغترف من معينها، ويشهد لهذا: ما رواه الخالديان: «تذاكرنا ليلة في مجلس سيف الدولة...! ومعنا المتنبي فانشد احدنا لمولانا... شعراً ألم فيه بمعنى لابى تمام استحسنه مولانا فاستجاده واستعاده، فقال: ابو الطيب: هذا يشبه قول ابى تمام... كيت وكيت... فقلنا قد سررنا لابى تمام اذ عرفت شعره فقال: «اويجوز للاديب ان لا يعرف شعر ابى تمام وهو استاذ كل من قال الشعر...! وما زال بعد ذلك اذا التقينا ينشدنا بدائع ابى تمام، وكان يروي جميع شعره[1]» ة) يظهر المتنبي في مناظرته مع الحاتمي بمظهر المتواضع المتذلل الخائف من لسان الحاتمي، حتى يخيل الى الناظر أن كبرياء المتنبي قد اضمحل، ومن جملة ذلك: ما زعمه الحاتمي من ان ابا الطيب قال له اثر تلك المناظرة اللغوية... «اللغة يا هذا مسلمة لك...»، ومن عرف كبرياء هذا الرجل، واحتقاره لكل ما قد خلق الله وما لم يخلق، يحيل صدور هذه الكلمة منه، وما كان للحاتمي ان يخيف المتنبي، وهو الذي لم يخش سطوة اولى الامر الذين كان من المقبول ان يخاف سطوتهم، ويحذر بطشهم...! هذه جملة الاسباب التي تحملنا على انكار وقوع هذه المناظرة، وهي اسباب قوية ترجح لنا اختلاق الحاتمي لها، تجاوز الله عنه. وبعد، فماذا كان موقف ابى الطيب مع هؤلاء الذين غروا بذمه ولم يكن همهم الا محو اسمه وتقويض رسمه...؟ الذي يظهر انه لم يجبهم ولم يفكر فيهم - على عادته في الكبرياء - بل تركهم يتميزون غيظا، ويموتون حنقا، «وقد قيل له في ذلك: فقال: اني قد فرغت من اجابتهم بقولي لمن هو ارفع طبقة منهم:

(1) الصبح ص 80.

ارى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا
افي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
واتعب من ناداك من لا تجيبه واغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم غير انني بغيض الى الجاهل المتعاقل
واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني فاضل[1]،

طموحه ولد ابو الطيب في بيت خامل الذكر، وضيع القدر، مشكوك النسب، وكان ابوه يدعى انه جعفي[2]، ويعرف بعيدان السقاء، لانه كان يستقي لاهل المحلة بالكوفة، ونشأ طموحا الى المعالي ميالا الى تقلد المناصب الرفيعة، غير راض بان يعيش عيشة اولئك الشعراء الذين همهم التكسب بالشعر وغايتهم الزلفى الى الملوك والامراء، يدور في رأسه حب الولاية، ويانس من نفسه طموحا عظيما الى السيادة، ومقدرة كافية على تدبير الامور العظام، وشجاعة نادرة في ضرب اعناق الملوك والاستيلاء على ما بيدهم من ارضين[3]، واثر هذا الطموح في شعره كثير، وانظروا مثلا الى قوله:

ولقد ذخرت لكل ارض ساعة تستجفل الضرغام عن اشباله
اقل فعالي بله اكثره مجد وذا الجد فيه نلت ام لم انل جد
سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كانهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا كثير اذا اشتدوا قليل اذا عدوا
ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر

(1) اليتيمة ص 99 ج 1. (2) نزهة الالباء ص 367 و 368. (3) اليتيمة ص 93 ج 1

وتضريب اعناق الملوك وان ترى　　لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كانما　　تداول سمع المرء انمله العشر

وقوله لبعض الكلابيين وهم على شراب:

لاحبتي ان يملأوا * بالصافيات الاكوبا * وعليهم ان يبذلوا
وعلى ان لا اشربا * حتى تكون الباترات المسمعات فاطربا

تجدوه يانف من ان يعيش عيشة اهل المجون والخلاعة، ويرى من حقه ان يبايعه الناس ويصطفوه للولاية، لا يعد المجد الا في ضربه لاعناق الملوك، وان يكون ذا تاج وصولجان، وجاه وسلطان وهذا الطموح الذى جبل عليه الشاعر هو الذى دفعه الى ان يدعو قوما من رواشى نبله والمعجبين ببعد همته وذلاقة لسانه، الى مبايعته ومناصرته فى الخروج عن طاعة السلطان، فبايعوه مخلصين له الطاعة، على الحداثة من سنه، والغضاضة من عوده، وحين ضخم امره وانتشرت دعوته وكاد يتم له ما اراد، وصل خبره الى والى البلدة فقبض عليه وزج به فى السجن، وامر بتقييده وعذابه، ولما ذاق الم العذاب، واوهن رجليه ثقل القيد، ثاب الى رشده وتنصل مما قذف به، واستعطف الوالي بقصيدة يقول فيها:

امالك رقى ومن شأنـــــه　　هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء　　والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما برانى البــــلى　　واوهن رجلي ثقل الحديد

فرق له الوالى واطلق سراحه، ولم يثن عزمه عدم نجاحه فى دعوته هاته على رغم ما لاقاه بسببها من العذاب، وما سيم به من الخسف، وكيف يرجع عن عزمه من يقول فى سجنه:

كن ايها السجن كيف شئت فقد　　وطنت للموت نفس معترف

لو كان سكناى فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف

فلم يمض على سراحه غير قليل حتى خرج الى اللاذقية يدعى انه نبى ارسل يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً فآمن به وصدقه جمع من اهل اللاذقية، وما هي الا مدة قصيرة حتى عمت دعوته كل مدينة فى الشام وفتن الناس بسحر البيان، وفصاحة اللسان، وما كان يزعمه من انه انزل عليه قرءان، فتبعه على ذلك بعض بنى كلب وكلاب وعبس، وكاد ان يحدث فى الدولة احداثا جساما ويصل الى ما اراده من ضرب اعناق الملوك والاستيلاء على ما بيدهم من ملك. لولا ان قام فى وجهه لؤلؤ امير حمص فبدد كلمته، وقبض عليه واودعه السجن فى قرية يقال لها كوكتين، من عمل حمص، فما زال بها حتى براه البلى وكاد يتلفه العذاب ثم سئل الامير فى اطلاق سراحه، فاستتابه مما صدر منه، فتاب وكتبت عليه وثيقة بذلك تتضمن بطلان ما ادعاه واطلقه، وكان مترقبا من ابى الطيب فى هذه الآونة ان يلازم بيته ويقنع بما قدر له من قرض الشعر ويخلد الى الراحة واللهو كما هى عادة الشعراء امثاله، ولاكنه لم يرد ان يفعل شيئا من هذا وانما كان يفكر فى الطريق التى توصله الى الامرة والولاية، ففكر وقدر فرأى ان اعظم طريق توصله لإحراز ما يبتغيه هي الثروة، وهو فقير مملق لا يملك من المال كثيراً ولا قليلا، ثم نظر فلم ير سبيلا للحصول على هذه الثروة، الا مدح ذوى الجاه والغنى فتطلعت نفسه الى ملاقاة الملوك واشباه الملوك ممن يجد عنده امنيته، فاتصل لاول امره بابى العشائر، وهو والى سيف الدولة على انطاكية ومدحه مدحا متعددة حباه من اجلها بعطاء كثير وكان هذا سببا فى اتصاله بسيف الدولة، وتبوئه فى بلاطه مبوأ عز وتكرمة، وصدرت عنه

حينئذ فى سيف الدولة مدح رائقة حصل بهـا على شيء غير قليل من الثروة والجاه، ولما حصل على هذا الغنى الذى كان يعده سببـا للوصول الى ما يتطلبه من ولاية بـدأ يتطلع لتحقيق غايته العليا ومـا زال يرجو من سيف الدولة ان يوليه إمرة ناحية من نواحى ملكه، وما زال هذا يعده ويمنيـه حتى فسد ما كان بينهما ورحل عنه ولم ينل مما كان يتمناه عنده سوى تلك الثروة الطائلة، وولى وجهه شطر مصر قاصدا لقاء اميرها كافور الاخشيدى، وظاهر انه لم يقصده كيمـا يحصل على ثروة ثانية، وانما لاجل أن يبلغ بواسطته ما يتمناه من الإمارة:

لولا العلى لم تجب بى ما اجوب بها   وجناء حرف ولا جرداء قيدود

فوصل الى مصر وفرح كافور بوروده رغم ما كان يبدو عليه من زهو وكبرياء، وكان يعلم من ابى الطيب تطلعه الى الولاية وشغفه بالامارة، فاشاع في خاصته انه سيوليه ناحية من الصعيد، ووصل الخبر الى ابى الطيب فظن انه وصل الى ما اراده من قصد كافور، فمدحه مدحا متعددة وبقي يستنجزه ما وعده اياه تارة بالتصريح وتارة بالكناية، ومن ذلك قوله يخاطبه:

ابا المسك هل في الكأس فضل أناله   فانى اغنى منذ حين وتطـرب

اذا لم تنط بى ضيعة او ولايـة   فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ارى لى بقربى منك عينا قريرة   وان كان قربا بالبعاد يشاب

وهل نافعى ان ترفع الحجب بيننا   ودون الذى املت منك حجاب

وفي النفس حاجات وفيك فطانة   سكوتى بيان عندها وخطـاب

وما انا بالباغى على الحب رشوة   ضعيف هوى يبغى عليه ثـواب

وفى هذا البيت الاخير اشارة الى ما قلناه من ان ابـا الطيب لم يقصد

كافوراً الا لأجل الحصول على التولية، ولاكن كافورا اصاخ له باذن غير سامعة، ويذكر الرواة انه كان كلما انشده شيئا من ذلك القبيل لا يزيد على ان يبتسم له، ويعده ويمنيه، وانه انما وعده بذلك حياء منه، وقد سئل فى ذلك فقال: «يا قوم: اذا اعطينا من ادعى النبوة بعد محمد (ص) ولاية، افلا ترونه يدعى الملك مع كافور؟ حسبكم» على ان المتنبى نفسه كان يعتقد بعد هذا المامول، وصعوبة نيله من كافور، والى ذلك يشير فى قوله يخاطبه:

فان نلت ما املت منك فربما   شربت بماء يعجز الطير ورده

ولما لم يجد عنده ما يتمناه، رحل عنه حانقا عليه، فيمم دار السلام مقر الخلافة، هاجيا له بتلك الاهاجى المقذعة التى كان لها وقع عظيم فى نفسه، وهكذا مرت حياة المتنبى، وما زال وهو في برد صباه الى ان اخلق برد شبابه، وتضاعفت عقود عمره، يدور حب الولاية والرياسة فى رأسه، ويظهر ما كان ينبغى ان يضمر من كامن وسواسه، فى الخروج على السلطان، والاستظهار بالشجعان، والاستيلاء على بعض الاطراف[1] وشاء القدر ان لا يمنح له النجاح فى مساعيه، بل كان الاخفاق حليفه فيما ظل يسعى اليه طول حياته، فخابت ظنونه، واتت رياحه بما لا تشتهى سفنه، على رغم ما كان يبديه فى سبيل ذلك من اقدام، وما كان يقطعه للوصول اليه من فيافي وقفار

واذا كانت النفوس كباراً   تعبت فى مرادها الاجسام

شجاعته الشجاعة من الاوصاف اللازمة لطالبى المجد، والمتطامين الى السيادة والملك وكان لزاما لابي الطيب - وهو المشرئب الى الولاية

(1) اليتيمة ص 93 ج 1

والامارة، والمتطلع الى غزو العالم والاستيلاء عليه ـ ان يكون شجاعا لا يهاب الحروب، ومقداما لا يخشى الردى، ليتوصل بذلك الى تلك المطامع المريضة التى كانت شغله الشاغل، ويتقلد تلك المناصب الرفيعة التى كان يصبو اليها طيلة حياته، ونحن اذا نظرنا الى شعره مجردا عن موقفه فى الوقائع التى شهدها في حياته ألفيناه ذلك الشجاع الباسل الذى يتقدم الى معامع الحروب ولا يخشى فيها بأسا، ويلقى بنفسه الاعداء البهم ولا يخاف منهم بطشا، وكيف يخاف هول الحروب، ويخشى بطش الشجعان من تطلع الى خوض المعارك وتشوق الى الانضمام فى صفوف القتال، وهو صبى لا زال لم يبارح الكتاب وفى ذلك يقول، وقد تعجب من حسن وفرته:

لا تحسن الوفرة حتى ترى   منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة   يعلها من كل وافي السبال

وانظروا الى قوله يخاطب نفسه:

ردى حياض الردى يانفس واتركى   حياض خوف الردى للشاء والنعم
ان لم اذرك على الارماح سائلة   فلا دعيت ابن ام المجد والكرم
ايملك الملك، والاسياف ظامئة   والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآنى ماء مات من ظما   ولو مثلت له فى النوم لم ينم

لتتصوروا الحد الذى وصلت إليه شجاعة الرجل، وتذكروا المبلغ الذى بلغه في احتقار الحياة والاقدام على ورد الردى بقلب هادىء مطمئن...
هذا ما نستفيده من شعره، أما ما نستفيده من الواقع فهو ان ابا الطيب كان لا قدرة له على الحرب، ولا اقدام عنده على خوض المعارك، اعنى انه كان جبانا تحدثه نفسه بالفرار اذا ما حضرته صفوف القتال... واليكم

شاهد ذلك: حكى أبو حصين الرقي قاضى حلب عن سيف الدولة قال: كان المتنبى - وهو سادس ستة نجوا معى فى غزوة العشاء ولم ينج سواهم - يجر فرسه فاعتلقت بعمامته اغصان من الشجر المعروف بام غيلان فكان كلما جر الفرس انتشرت العمامة، وتخيل المتنبى ان الروم قد ظفرت به، فكان يصيح: الامان يا علج...! قال سيف الدولة: فهتفت به وقلت: ايما علج...؟ هذه شجرة علقت بعمامتك، فود ان الارض غيبته...[1] وقال ابو القاسم الاصفهاني فى ايضاح المشكل: قال بعض من شاهد المتنبى انه لم تكن فيه فروسية وانما كان سيف الدولة سلمه الى النخاسين والرواض بحلب فاستجرأ على الركض والحضر، فاما استعمال السلاح فلم يكن من عمله...![2] وتحدث الرواة: ان نفسه حدثته بالفرار من وجه فاتك الاسدي في واقعة قتله، ففر حتى عيره بذلك غلامه فرجع خشية العار...![3] ولهذا فلا نكذب الحقيقة اذا قلنا: ان شجاعة ابى الطيب كانت مقصورة على لسانه، اما تقدمه الى المعامع ولقاء الابطال فلم يكن من شأنه...!

اعتماده على نفسه ومن اخلاقه انه كان كبير الاعتماد على نفسه لا يرضى بان يعتمد في قضاء مآربه على غيره، «وكم تجشم اسفارا ابعد من آماله ومشى في مناكب الارض يطوي المناهل والمراحل، ولا انيس له الا نفسه، ولا زاد الا من ضرب الحراب، على صفحة المحراب، ولا مطية الا الخف والنعل»[4] وكان من حق أبى الطيب - لما علمتم من طموحه - ان يجاب اليه جماعات وعصابات يجعلهم انصاره ويعتمد عليهم في تنفيذ مبادئه ونشر دعوته، ولكن ابى شذوذه في الاعتماد على نفسه

(1) من الصبح ص 39 (2) فى خزانة الادب ص 147 ج 2 (3) العمدة ص59ج2 ويتيمة الدهر (4) اليتيمة ص94 ج 1

ان يعير لهذا المطلب على شدة احتياجه اليه اي التفات...! وذلك لانه طبع على فقد الثقة بالناس وكراهته لهم منذ الفطرة. وقد كان شذوذه هذا في الاعتماد على نفسه كثيرا ما يجشمه المهالك ويورده المنايا، وحسبكم دليلا على ذلك حادثة قتله، ففيها يظهر ابو الطيب كبير الغرور، لا يفكر في عواقب الامور، ولا ياخذ الاحتياط لنفسه في مواطن الزلل، انظروا اليه، وقد خرج من شيراز، مارا على ابي نصر الجبلي، موليا وجهه شطر بغداد، فيعلمه ابو نصر بما عزم عليه فاتك الاسدي من الفتك به وسفك دمه، ويرجو منه ان ياخذ حذره منه، ويصحب معه جماعة من اهل البلد العارفين بالمواضع المخوفة ليرشدوه الى الطريق القويم ويدافعوا عنه كيد العدو المقتص، فيقطب وجهه ويقول: «...اما والجراز في عنقي فما لي حاجة الى مؤنس غيره» فيشفق عليه ابو نصر ويقول له: «...يا هذا اني اوجه قوما من قبلي يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك»، فيقطب وجهه مرة ثانية ويقول له: «يا ابا نصر، والله لو ان مخصرتي هذه ملقاة على شاطىء الفرات، وبنو اسد معطشون لخمس، وقد نظروا الى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده، معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة...» فيخلي ابو نصر سبيله، ويتقدم هو ليلقى هلاكه، باحثا عن حتفه بظلفه، وفى هذا من التهور والاغترار بالاعتماد على النفس ما لا يخفى...!

عفافه ومن الاخلاق الجميلة التى تناسب عظمة أبى الطيب هذا العفاف الذى لزمه الشاعر طول حياته، فصان به نفسه عن كثير من الرذائل التى لم يتنزه عنها كثيرون ممن ادركتهم حرفة الادب، ولم يكن هذا العفاف فى أبى الطيب ناشئا عن تدينه - لانه كان ضعيف الدين ليس له وازع

ديني يمنعه من ارتكاب الخبائث، وانما كان ناشئاً عن مروءته وانفته وعزة نفسه، وفى ذلك يقول:

انى على شغفى بما فى خمرها ... لاعف عما فى سر ابيلاتها
وترى المروءة والفتوة والابو ... ة في كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتى لـذتى ... فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها

وهذه المروءة هي التى جعلت منه عفيفا يعف فى النوم كما يعف فى اليقظة، وفى ذلك يقول:

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ... ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد

ولم يكن ابو الطيب عفيفا بالمعنى الجزءي لهاته الكلمة فقط، بل كما كان يعف عن اتيان الفاحشة كان يعف عن الذهاب بالنميمة، ويكبر نفسه عن ان يجازي اعداءه باغتيابهم، لان ذلك مجازاة من ليس له جهد بمواجهة العدو:

واكبر نفسى عن جزاء بغيبة ... وكل اغتياب جهد من ما له جهد

وكما كان يعف عن ذلك كان يعف عن شرب الخمر، لانه يراها تسىء ادب المرء وتفسد عقله، وتهيج اشواقه: واستمعوا اليه يعتذر لصديقه بدر بن عمار عن عدم شربه للخمر: لانه ذ قها فوجدها موتا، ولا يشتهى الموت من ذاقه:

وجدت المدامة غلابة ... تهيج للقلب اشواقه
تسىء من المرء تأديبه ... ولكن تحسن أخلاقه
وانفس ما للفتي لبه ... وذو اللب يكره انفاقه
وقدمت أمس بها موتة ... ولا يشتهى الموت من ذاقه

وهنا لك شيء آخر كان يمنعه من معاطاة الكؤوس وحضور بساط المنادمة،

وهو شغفه بالحرب وتطلعه الى الغزو:

الذ من المدام الخندريس — واحلى من معاطاة الكئوس
معاطاة الصفائح والعوالي — واقحامي خميساً في خميس
فموتي في الوغى عيشي لاني — رأيت العيش في ارب النفوس

ويذكر علي بن ابي حمزة البصري: ان أبا الطيب كان عفيفا في لسانه ايضا: بمعنى انه كان يصون لسانه عن الكذب، ونحن في شك من هذا، لانا لا نسوغ ان يكذب المتنبي على الله فيزعم انه اوحى اليه، ثم لا يكذب على الناس، وهم قد جبلوا في نظره على النفاق والخداع والكذب، ومن اكذب ممن افترى على الله كذبا، أو قال اوحى الي ولم يوح اليه شيء....؟!

شغفه بالمال وبخله نشأ أبو الطيب فقيرا معدما، ونشأ مع ذلك طموحا الى السيادة، ولكنه رأى نفسه عاجزا عن الوصول الى ما يريد، اذا ما بقي على حاله من الفقر والاملاق، فصار يتتبع الطرق التي تمكنه من الحصول على الثروة، فبدأ يمدح القريب والغريب، ويصطاد ما بين الكركي والعندليب، ويجتهد في ارضاء ممدوحيه علهم يجودون عليه مما بايديهم، ويحبونه بما يذهب عنه حسرة الاملاق، ويبدو ابو الطيب في هذه الآونة رجلا خانعا متواضعا يتردد على ابواب ذوي الجاه والثروة ويمدحهم بالقصائد العريضة، ويقنع بما يجازونه به على ذلك، ولا يترفع عن قبوله، ولو بلغ في التفاهة ما بلغ، ويحكي لنا الرواة ـ مصداقا لما قلناه ـ انه مدح الناس في حال عسرة، بدون العشرة والخمسة من الدراهم[1]، وانه لم ينل من علي بن منصور لقاء قصيدته فيه التي اولها:

---

(1) ايضاح المشكل (خزانة الادب ص 189 ج 2.)

بابى الشموس الجانحات غواربا... الخ الا دينارا واحدا، فسميت بذلك الدينارية[1]...! ويحكون ايضا عنه انه قال: أول شعر قلته وابيضت أيامى بعده قولى:

ايالائمى: ان كنت وقت اللوائم علمت بمابى بين تلك المعالم

فانى اعطيت بها بد مشق مائة دينار[2]...! وظهر المتنبى فى هذا الحين شرها على المال متطلعا الى ما بايدى الناس منه، وبدأ حينئذ تظهر فيه اعراض الامساك والشح ومضت عليه مدة غير يسيرة ذاق فيها لوعة الفقر، وعاين احتقار الناس له بسبب تملقه لهم، ثم انفتحت طرق الثروة امامه، فاتصل لاول امره بابى العشائر الحمداني، ونال من رفده مالا كثيراً، واتصل بعده بسيف الدولة بحلب، ثم بكافور الاخشيدى وفاتك المجنون بمصر، ثم بابى الفضل ابن العميد بارجان، ثم اخيرا بعضد الدولة بن بويه بشيراز، فنال من عند هؤلاء جميعا اموالا جزيلة، وحبي من لدنهم بهدايا جليلة، وحصل بذلك على ثروة عظيمة، ولقد عد ما وصله به سيف الدولة فبلغ فى ظرف اربع سنين: خمسة وثلاثين الف دينار، وعد ما وصله به فاتك فبلغ عشرين الف دينار، وعدما حمله اليه أبو الفضل ابن العميد فبلغ خمسين الف دينار[3]، فمجموع ماوصل به من عند هؤلاء الثلاثة: خمسة آلاف ومائة الف دينار! وهذه ثروة لا يحصل عليها فى زمان ابى الطيب الا قليل، فاذا اضيف اليها ما ناله من ابى العشائر، ثم ما ناله من سيف الدولة فى باقى المدة التى لازمه فيها، ثم ما ناله من كافور الاخشيدي وعضد الدولة بن بويه وغيرهؤلاء من ممدوحيه بلغت بذلك حدا يقف دونه العد...! ولقد كان ابو الطيب

---

(1) اليتيمة ص 95 ج 1. (2) الايضاح: خزانة الادب ص 139 ج 2 (3) الايضاح: الخزانة ص 140 و 141 و 142 ج 2.

ـ سواء فى حال عسره او يسره ـ كثيرا ما يفيض شعوره بتعظيم العواطف السامية، واحتقار الماديات، ومدح الكرم واهليه، وذم البخل وذويه كقوله:

كفاني الذم انني رجل　　اكرم مال ملكته الكرم
يجني الغنى لئام لو عقلوا　　ماليس يجنى عليهم العدم
هم لاموالهم ولسن لهم　　والعار يبقى والجرح يلتئم
من يطلب المجد فليكن كعلي　　يهب الالف وهو يبتسم
والغنى فى يد اللئيم قبيح　　مثل قبح الكريم في الاملاق
ومن ينفق الساعات فى جمع ماله　　مخافة فقر فالذى فعل الفقر

مما يخيل الى سامعه انه صادر عن شاعر كريم تظل ابواب داره مفتوحة لراجى رفده وطالبى نواله، ولم يك ذلك فى الواقع الا احبولة فى يد ابى الطيب يصطاد بها ما بايدى الناس من الاموال...! وكان منتظراً من ابى الطيب ـ فى الوقت الذى بلغت فيه ثروته الى ما ذكرنا ـ أن يقل شرهه على المال ويكثر اسعافه للفقراء والمعوزين، ويفتح ابواب منزله للسماة الواردين، فينيلهم من معروفه مثل ما انيل من معروف ممدوحيه، ويخلدون ذكره كما خلد هو ذكر نائليه، ولكن مع الاسف نراه ازداد شرهه على المال، وكثر حرصه على البخل والتقتير، وبلغ به ذلك الى ان انحط من شاهق كبريائه وعظمته الى حيث يتساوى مع الاوغاد والسفلة، فيهين بذلك نفسه، ويشمت به اعداءه، ولقد بلغ من شرهه على المال، ورغبته فى البخل، وحرصه على الشح أن ضربت به فى ذلك الامثال، ونقلت عنه فيه حكايات عجيبة، ونوادر مضحكة غريبة، نقتصر منها على ما يلى: 1) حكى ان ابا الطيب دخل مجلس ابى

الفضل ابن العميد، وكان يستعرض سيوفا، فلما نظر ابا الطيب نهض من مجلسه واجلسه فى دسته، ثم قال له اختر سيفا من هذه السيوف، فاختار منها واحدا ثقيل الحلى، واختار ابن العميد غيره، فقال كل واحد منهما: سيفى الذى اخترته اجود، ثم اصطلحا على تجربتهما، فقال ابن العميد فيما ذا نجربهما...؟ فقال ابو الطيب: فى الدنا نير يوتى بها فينضد بعضها على بعض، ثم نضرب به، فان قدها فهو قاطع، فاستدعى ابن العميد عشرين دينارا فنضدت ثم ضربها ابو الطيب فقدها وتفرقت في المجلس، فقام من مجلسه الفخم يلتقط الدنانير المتبددة، فقال ابن العميد: ليلزم الشيخ مجلسه، فان احد الخدام يلتقطها ويأتى بها اليك، فقال بل صاحب الحاجة اولى[1]، 2) وحكى ابو القاسم الاصفهاني فى كتابه: «ايضاح المشكل» قال: كان ابو جعفر وزير بهاء الدولة مأمورا بالاختلاف الى المتنبى وحفظ المنازل والمناهل من مصر الى الكوفة وتعرفها منه. فقال: كنت حاضره يوما وقام ابنه يلتمس اجرة الغسال، فاحد المتنبى اليه النظر بتحديق وقال: «ما للصعلوك والغسال...؟ يحتاج الصعلوك الى ان يعمل بيده ثلاثة اشياء، يطبخ قدره، وينعل فرسه، ويغسل ثيابه، ثم ملأ يده قطيمات بلغت درهمين او ثلاثة[2]...» 3) وقال الثعالبي: سمعت الخوارزمي يقول: «كان ابو الطيب قاعدا تحت قول الشاعر:

وان احق الناس باللوم شاعر   يلوم على البخل الرجال ويبخل

وانما اعرب عن عادته وطريقه فى قوله:

بليت بلى الاطلال ان لم اقف بها   وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه[3]

وقال ابو العلاء يوما لتلاميذه يتهكم على المتنبى: اتدرون كم يقف

(1) عن الصاحب ص 59. (2) في الخزانة ص 145 ج 2. (3) عن اليتيمة ص 198 ج 1

امنية المتنبى التى لم تتحقق

تكلمنا فى فصل «المتنبى فى ديوانه»[1] على ثلاث نواحى مهمة من حياة المتنبى النفسية والخلقية وهى تنبؤه وعقيدته واخلاقه. وقلنا ان اغلب الباحثين جروا على قبول اكثر الروايات التى ترمى الى الطعن على المتنبى من النواحى المذكورة، من غير ان يكلفوا انفسهم عناء البحث عن مصدر تلك الروايات وما تقتضيه من التناقض التام مع باقى الروايات المنقولة عنه بل ومع شعره المجموع فى ديوانه. وقد استوفينا الكلام فى ذلك الفصل، حسب طاقة الزمان والمكان، وخلصنا منه بنتائج حسنة مبنية على دلائل قوية لم نسبق (بالبناء للمفعول) فيما نظن الى الكثير منها. ثم تطرقنا الى الكلام على امنية المتنبى فى الحياة وماذا كان يصير لو نجح فى تحقيقها، ولا كنا انما المنا بهذا المطلب المامة قصيرة لاتشفى من نفس الباحث غلة مع جلالة موضوعه واهمال النظر فيه بالكلية من جميع الباحثين فى حياة المتنبى الذين قرأناهم سواء كانوا قدماء اوجددا.

الشحيح على الخاتم...؟ انه ليقف اربعين يوما[2]...!

هذه كلمة موجزة عن بعض اخلاق المتنبى، واخلاقه فيها الجميل الذى يسمو بصاحبه الى ذروة عالية فى المكانة، تتفق وما كان يتطلع اليه من سيادة، وفيها القبيح الذى ينزل بصاحبه من تلك الذروة العالية الى الحضيض الذى يتساوى فيه مع السفلة والاوغاد. ومهما استطاع الناقدون ان ينقدوا من اخلاقه، فلن يستطيعوا ان يقوضوا ما له من منزلة رفيعة فى اعين الناس، او يحطوا ما ناله من شهرة واسعة طبقت الآفاق...؟

احمد ابن المليح

---

(1) نشر بمجلة الرسالة فى عددى 129 و 130 ولاكن وقع فيه خطأ مطبعى كثير - الكاتب -

(2) عن الصبح ص 35.

ونحن نعيد النظر في ذلك مع شيء من التوسع يحدد من جوانب الموضوع تحديدا ويقرب منه ما كان بعيدا:

كان المتنبي يرى نفسه مستجمعا لأدوات الرياسة التي توقل بها عظماء عصره فى مدارج الحكم والتسلط على رقاب البشر، وهي البلاغة والشعر والادب والشجاعة والاقدام والبصر بالحروب، وكان طموحا جدا لا يستعظم غاية ولا يعرف فى التسامى نهاية، فوقر فى نفسه انه لم يخلق الا للولاية والسلطان، وانه لا يصلح له الا الترؤس والحكم، فقام يطلب ذلك وجرب القوة، اذ خرج فى بادية السماوة فى قوم من بنى كلاب، فقائل يقول انه خرج لطلب الملك وهو الصحيح، وقائل يقول انه تنبأ وخرج يدعو الى الدين الذى جاء به، ولكن سرعان ما فشل اذ تقبض عليه الوالى واودعه في غيابات السجن وما افلت منه الا بكثير من التحيل في مدحه والتنصل مما رمى به، فأيقن حينئذ أن القوة لاتجديه نفعا وانه لاينال بها ما يريد. فاستخدم الوسيلة الاخرى وهى البلاغة التى تمكنه من التحكك بالعظماء والتقرب من ذوى النفوذ والكلمة، فاتصل بسيف الدولة صاحب مملكة حلب ثم بكافور صاحب الديار المصرية وبغيرهما من الوزراء والرؤساء، يمدح الكل ويطرى مزاياهم بشعره الخالد آملا ان يدنيه ذلك من أمله، وان يرفعه هؤلاء من بساط المداح الى بساط الممدح، ولاكن امنيته هذه لم يستطع احد ممن اتصل به ان يحققها له ولا ان ينيله منها قليلا او كثيرا. فاضطرم المتنبى بالغيظ، واحتدم بالحنق على الولاة والحكام، وصار لا أعدى اليه منهم ولابسه شعور العداوة نحوهم، فكان مهما اخفاه وبالغ في كتمانه يقع في مساقط كلامه، ويبدو من مظاهر احواله، ولعل ابرز صورة يظهر فيها هذا الحقد الذى امتلات به نفس

المتنبى على ذوى السلطة والنفوذ قوله فى تعريف المجد:

ولا تحسبن المجد زقا وقينة   فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى   لك الهبوات الكثر والعسكر المجر

كان المتنبى يطلب دولة ولا شك، فرغ نفسه لهذا الامر طول حياته فلم يشغلها بسواه، ولم يكن كغيره من الشعراء يلهو ويقصف فهو لا يشرب الخمر لانها تشغل عن المعالى كما قال فى سيف الدولة:

ولا شغل الامير عن المعالى   ولا عن حق خالقه بكاس

ولا يحفل بالنساء كثيرا، لانهن لا يصبن من فؤاده مرمى كما قال:

وللخود منى ساعة ثم بيننا   فلاة الى غير اللقاء تجاب
وما العشق الا غرة وطماعة   يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادى للنساء رمية   وغير بنانى للزجاج ركاب

بل هو قد ترك كل شهوة مما يهتبل به غيره من الادباء والشعراء فى زمانه وقبله وبعده، ليتوفر على مطلبه من الرياسة والملك قائلا في ذلك:

تركنا لاطراف القنا كل شهوة   فليس لنا الا بهن لعاب
وفؤادى من الملوك وان كان   لسانى يرى من الشعراء

وفي سبيل هذه الدولة كان ياخذ نفسه بجمع المال واكتنازه حتى رمى بالبخل والبخيل لا يقول قوله:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقر
وما رغبتى فى عسجد استفيده   ولاكنها فى مفخر استجده

فالحقيقة ان جمعه للمال كان لاجل ما منى به نفسه من الملك، يستميل به الناس فاذا هو ثار لا يسلمونه للوالى ايضا، اذ يجدون عنده افضل مما يجدون عند الوالى. ولذلك قال:

وما كل بمعذور ببخل ... وما كل على بخل يلام

ولاكن ها هو مع هذا كله قد بدأ يشعر بالفشل الذريع واليأس المريع فيشكو من الدنيا لانه يتعذب فيها بسبب بعد همته، وهى بعد لم تعد ان تكون منزلا لراكب:

لحى الله ذى الدنيا مناخا لراكب ... فكل بعيد الهم فيها معذب

ويستعرض العوائق التى تحول دون مراده فيجد من اولها الدهر:

اطاعن خيلا من فوارسها الدهر ... وحيداً وما قولى كذا ومعى الصبر

ثم يحس بعسر مطلبه واستحالة مرغبه فيتهكم بالزمان هذا التهكم المر:

اريد من زمنى ذا ان يبلغنى ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

واخيرا يدفع به اليأس الى ملاقاة الموت كفاحا، وتحطيم جميع آماله بيده فرارا من عار الهرب، اذ جاء بذوضبة لقتاله وكان هجاهم اقذع الهجاء فلما هم بالهرب، ذكره غلامه بقوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فتوجه الى مصرعه قائلا لذلك الغلام النحس: «قتلتنى قتلك الله»، وطويت صحف حياة المتنبى ولم يبلغ من زمانه ما امله. أفرايت الى هذه الخيبة القاسية؟ انها تحور الى نجاح باهر لم يكن يحلم به المتنبى: لقد عقدت الاجيال بعدها تاج الامارة للمتنبى واسست له دولة ليست من طراز دول عصره التى كانت نفسه تذهب حسرات عليها، بل هي دولة الحكمة والادب، دولة الخلود التى تبقى على الزمن، دولة من رعاياها امرؤ القيس وابو نواس وخصم ابى الطيب ابو فراس. فليهن أبا الطيب ان «دويه» قد تجاوبت به اطراف الدنيا بعد الف عام، ولاكن في دولة السلام لا فى دولة الحسام كما كان يرى هو ويؤمل، قائلا فى تعريف المجد عطفا

على البيتين المتقدمين:

وتركك في الدنيا دويا كأنما   تداول سمع المرء انمله الشعر

وبعد، فلنفرض ان أمنية المتنبى هذه قد تحققت، فهل كان يقنع باحدى الولايات يسوغها اياه احد الحكام؟ وهل كانت دولته تقوم من أود الاجتماع المائل فى ذلك العصر؟

اما السؤال الاول فيكفى للجواب عنه ايراد بعض الابيات من شعره الدالة على ان نفسه الطموح لم تكن لترضى بالحظ يكون دون حظ غيره من معاصريه، كيف وهو القائل:

اي محل ارتقى   اي عظيم اتقى

وكل ما قد خلق   الله وما لم يخلق

محتقر فى همتى   كشعرة فى مفرقى

وقد كان يحجم تارة عن ذلك ويلجلج فى الكلام فيقول مثلا:

يقولون لى ما انت فى كل بلدة؟   وما تبتغى؟ ما أبتغى جل ان يسمى!

وكان تارة اخرى يصرح صراحة تكاد تطيح برأسه وتغوله في نفسه كقوله:

أقرارا ألذ فوق شرار   ومراما أبغى وظلمى يرام

دون أن يشرق الحجاز ونجد   والعراقان بالقنا والشام

ومما اشتهر فى هذا الباب وهو صحيح المعنى ان كافورا سئل لم لم ينل المتنبى ما كان يطلبه من الولاية ليتحامى بذلك شره، فقال. «ياقوم: من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم الايدعى الملك مع كافور؟»

واما السؤال الثانى فيتبين الجواب عنه من تعرف آراء المتنبى فى دول عصره وما كان ينقده من احوال اهله: فالظلم اول الاصول التى بنيت عليها سياسة ملوك زمانه، فهو ينعيه عليهم ويتوعد اهله بالانتقام

الشديد كما قال:

على لاهل الجور كل طمرة عليها غلام ملء حيزومه غمر
يدير بأطراف الرماح عليهم كؤوس المنايا حيث لاتشتهي الخمر

وكان يرى فقدان التجانس بين الراعي والرعية من أهم اسباب الفساد الضارب اطنابه في البلاد، فهو لذلك ينعى على المصريين تمليك العبيد بقوله:

أكلما اغتال عبد السوء سيده اوخانه فله في مصر تمهيد؟

ويحرك الكامن من نعرة الجنس في نفوس المسلمين بقوله:

سادات كل اناس من نفوسهم وسادة المسلمين الا عبد القزم
وانما الناس بالملوك ومـــا تصلح عرب ملوكها عجم

ثم هو كثيرا ما ينكر على اهل عصره غلبة الجهل والا ؤم وعدم فهم حقيقة الدين كقوله:

أذم الى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد
اغاية الدين ان تحفوا شواربكم يا امة ضحكت من جهلها الامم

الى غير ذلك مما لو تتبعناه لطال الامر - فهذه افكاره في احوال الدولة والجماعة في عصره، وهي كما ترى لاتدل على رضى بتلك الاحوال ولا على اطمئنان الى اهلها. فلا يبعد انه لو كانت الدولة دالت له لراينا انقلابا عجيبا في اوضاع السياسة والاجتماع في الامة الاسلامية في اواسط القرن الرابع، يوحد من فرقتها، ويعرب من عجمتها، ويهذب من خلقها ويعود عليها بما فقدته من حياة العز والسودد والمجد الصميم، وحبذا لو كان ذلك،

عبد الله كنون الحسني

اسباب الخلود فى شعر المتنبى

يحدثنا ابن النديم فى فهرسته، ان ابا محمد بن عمران المرزباني المتوفى بعد وفاة شاعرنا بثلاثة وعشرين سنة الف كتاب المسنين عدد ورقه خمسة آلاف ورقة ذكر فيه الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين ومختار اشعارهم، أولهم بشار وآخرهم ابن المعتز، وكتاب المفيد عدد ورقه اكثر من خمسة آلاف ورقة ذكر فيه المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وما روى من نعوتهم وعيوبهم ومذاهبهم فى دياناتهم، وكتاب الموثق عدد ورقه اكثر من خمسة آلاف ورقة فيه اخبار الشعراء المشهورين من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين على طبقاتهم، وأورد محاسن اخبارهم الى أول الدولة العباسية، وكتاب الرياض عدد ورقه ثلاثة آلاف ورقة فيه اخبار المتيمين من الشعراء، وكتاب المعجم ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم وفيه خمسة آلاف اسم، وقد طبع حديثا ما عثر عليه منه.

هذا ما كان يعرفه واحد من الرواة الاخباريين الصادقين عن شعراء الامة العربية، فأين هؤلاء الشعراء وأين اخبارهم وأين ما انتجته قرائحهم من جيد الشعر ورديئه، لقد ذهب كل ذلك طي الزمان وتناثر بين صفحات المجلدات ولم يبق لنا من هذا التراث العظيم الا عدة اشخاص استطاعوا أن يصمدوا أمام عبث الايام وطغيان الزمان فاشتهرت اسماؤهم وعلقت بالاذهان اشعارهم وقد كان من بين هؤلاء شاعرنا العظيم، وسيظل كذلك اوفر الشعراء حظا في الخلود واعظمهم نصيبا فى الشهرة.

اتى شاعرنا فعفى على آثار الجميع وملأ الدنيا وشغل الناس

أنا الذى نظر الاعمى الى ادبى   واسمعت كلماتى من به صمم

فليست مجالس الدرس، اعمر بشعر ابى الطيب من مجالس الانس، ولا

اقلام كتاب الرسائل، اجرى به من السن الخطباء في المحافل، ولا لحون المغنين، اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين[1].

فما هو سر هذا الخلود وما هي اسباب هذا الذيوع والانتشار، ولا بريد ينقل ولا صحف تنشر ولا واحي يذيع؟ لقد كان المتنبي شخصية فذة عرفت نفسها وعرفت غيرها وعرفت الحياة بما فيها من من جد وهزل وخير وشر، فامتزجت العاطفة عندها بالعقل والقوة بالضعف واليأس بالرجاء والتفاؤل بالتشاؤم، ثم انفجرت تلك البوتقة المتاججة بشعر كان شعر الحياة، شعر الانسانية جمعاء بما تحلمه من آمال وما تحسه من آلام.

عرف المتنبي مقدار نفسه ومدى سموه على غيره، فعجب غاية الاعجاب وفخر غاية الفخر، واحتقر كل الاحتقار ما عداه حتى عز عليه أن يستعمل الالفاظ كما هي فعمد الى التصغير في هجائه. فهو الهادي لا هادي غيره، والشاعر وغيره المتشاعر في القديم والحديث، وهو شريف قومه ومشرفهم، وبقومه فخر العرب كلهم.

وانى لنجم تهتدى بي صحبتى ... اذا حال من دون النجوم سحاب

لا بقومى شرفت بل شرفوابى ... وبنفسى فخرت لا بجدودى

وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذ الجاني وغوث الطريد

حظى شاعرنا مع عظمته هذه وغلوه في نفسه، بطائفة قدرت عبقريته ونبوغه، وارادت ان تحظى بتخليده فتصاغرت له وصبرت على تيهه وتحملت عجبه وكبره، وامطرت عليه من وابل انعاماتها ما مدح به وبالغ، وقد كان من بين هؤلاء سيف الدولة وابن العميد، ولكل منهما جولات

(1) اليتيمة ج 1 ص 95

فى نقد الادب وتمييز جيده من رديئه فأثار حظه عليه هذا طائفة من الحسدة والوشاة بذلوا كل ما لديهم من قوة لتقويض ادبه وشخصه، حتى ضاقت عليه الارض بما رحبت واسودت الحياة فى نظره، وقد وصف لنا ذلك فكان لنا منه ادق وصف لنفسية الحسدة والوشاة ومدى اذايتهم وضررهم.

اعادى على ما يوجب الحب للفتى — واهدأ والافكار في تجول
سوى وجع الحساد داو فانه — اذا حل فى قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد فى مودة — وان كنت تبديها له وتنيل
ما ذا لقيت من الدنيا واعجبه — انى بما انا باك منه محسود
وما ليل بأطول من نهار — يظل بلحظ حسادى مشوبا
وما موت بابغض من حياة — ارى لهم معى فيها نصيبا

حظى شاعرنا بما حسد عليه ولكن لم يكن ذلك كل ما يتطلبه فى الحياة فلقد كانت له آمال كبار اكبر من الزمان واوسع من ان تحيط بها دائرته.

اريد من زمنى ذا ان يبلغنى — ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

جمجم بهذه الامال كثيرا وحاول تحقيقها بما استطاع، وهو وان اصبح بعد ان عرف مقدار الغاية وتبعتها يحوم حولها ولا يفصح عنها، فلقد افصح بها ايام صباه يوم لم يكن يقدر المسؤولية قدرها. تلك هي غاية المتنبى فى الحياة وذلك مدى طموحه العظيم فهو يبغى الحياة.

ارى كلنا يبغى الحياة لنفسه — حريصا عليها مستهاما بها صبا

ولكن لا حياة الشهرة واللذة والخلود الى الراحة والنعيم والاستمتاع برغد العيش وطيب المكان. هو يريد الحياة ولكن حياة يتلذذ فيها بعلو المقام وعزة النفس وسلطان السيادة. اما حياة الذل والاهانة، وحياة الدعة

والسكون فألذ منها الموت الزؤام واشهى منها لظى جهنم، هذه هي لذة نفسه في الحياة، وان نفسا يكون هذا كل املها الجديرة بان تكون موضع استغراب واعجاب، وقد كان هو أول المتعجبين من نفسه

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الالم

ومما لا يستطاع ان تظل هذه النفس الشاذة في معترك الحياة على خط واحد، فلا بدع اذا رأيناه يتناقض فينزل لمستوى الانسان، انسان اللذة والشهوة، فيحبذها ويزينها ويحض على اغتنام الفرص في اجتنابها، وما ابدع تشبيهه فواتها وانقضاء زمنها بقبلة الحبيب

انعم ولذ فللامور أواخر ابدا إذا كانت لهن أوائل

ما دمت من أرب الحسان فانما روق الشباب عليك ظل زائل

للهو آونة تمر كانها قبل يزودها حبيب راحل

ولكن كل هذا مع الاحتفاظ بالكرامة

وما منزل اللذات عندي بمنزل إذا لم ابجل عنده واكرم

ولا غريب اذا رأينا روحه القوية تذعن لسلطة الحب، وقلبه القاسي ينقاد لعاطفته الرقيقة واحساسه العميق. لقد احب المتنبي وان في شعره لنفثات لا تصدر الا عن مصدور، ولا ينطق بها الا خبير بالحب ذاق صابه وشهده

لا تعذل المشتاق في اشواقه حتى يكون حشاك في احشائه

ان القتيل مضرجا بدموعه مثل القتيل مضرجا بدمائه

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى وللحب ما لم يبق مني وما بقى

وبين الرضى والسخط والقرب والنوى مجال لدمع المقلة المترقرق

وعذلت اهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

الى م طماعية العاذل ولا رأى في الحب للعاقل

هذه مهجتى لديك لحينى   فانقصى من عذابها او فزيدى

ففى تغرم الاولى من اللحظ مهجتى   بثانية والمتلف الشيء غارمه

سقاك وحيانا بك الله انما   على العيس نور والخدور كمائمه

فأين بأس المتنبى وقوته، أين جرس الفاظه وصلصلتها فى الآذان، أين عظمته وانفته، أين شدته وقوته، أين الحصن المنيع الذى صوره لنا الاستاذ العقاد، أين القلب القاسى الذى لم يؤثر عنه انه احب كما يقول الاستاذ شفيق جبري، لقد تحطم كل ذلك وخرسا جدا أمام عظمة الحب والجمال.

ان شخصية كهذه الشخصية بعيدة الآمال لا مدى لها، ولا نهاية معينة لطموحها تتنازعها الاهواء وتتضارب لديها المذاهب والآراء ولا دهر يساعد ولا خل يوافق، لجديرة بان تعيش بين اليأس والرجاء

ابدا اقطع البلاد ونجمى   فى نحوس وهمتى فى سعود

ولعلى مؤمل بعض ما ابلـــغ   باللطف من عزيز حميد

وجديرة بان تكون صخرة الوادى تتقاذفها الكوارث وتتلقفها المصائب

يا ساقيي أخمر فى كؤسكما   أم فى كؤسكما هم وتسهيد

اصخرة انا ما لى لا تحركنى   هذى المدام ولا هذى الاغاريد

اذا اردت كميت اللون صافية   وجدتها وحبيب النفس مفقود

رمانى الدهر بالارزاء حتى   فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت اذا اصابتنى سهام   تكسرت النصال على النصال

خبر شاعرنا الدهر حلوه ومره وتجرع كئوس مصائبه المفعمة، على اشكالها والوانها حتى الثمالة، فعرف مصادرها ومواردها حتى لو انتسبت لكان لها نقيبا

عرفت نوائب الحدثان حتى	لو انتسبت لكنت لها نقيبا

وهل وجد مصدرا لكل ما ناله من سوء وما لحقه من اذى غير اخيه الانسان، ولذلك حكم حكمه القاسي وبالغ في الانذار والتحذير

فلا تغررك السنة موال	تقلبهن افئدة الا عادى
وكن كالموت لا يرثى لباك	بكى منه ويروى وهو صادى
فان الجرح ينفر بعد حين	إذا كان البناء على فساد
وان الماء يجرى من جماد	وان النار تخرج من زناد
ومن عرف الايام معرفتي بها	وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به	ولا في الردى الجارى عليهم بآثم

وهذه المعرفة الدقيقة بالزمان، والتجربة العملية لاهله، وهذه الآلام الممضة التى تحملها شاعرنا فى حياته المضطربة، هي التى انطقته بالحكم الخالدة، والامثال السائرة، ولعلنا في غنى عن الدلالة عليها، فكل اديب او متأدب يستظهرها او يستظهر بعضها. وبعد ايوجد في بنى الانسان من لا يشارك شاعرنا فى ناحية من نواحى حياته فيستغنى عن شعره المعبر عن الآمال والآلام وحكمه الخالدة وامثاله السائرة التى انتجتها التجربة واحكمها الاختبار؛ لا شك انه سيكون الجواب لا. واذن فهذا سر خلوده وداعية شهرته

تلك ناحية معنوية من نواحى شاعرنا ادت الى خلوده واشتهار شعره بين كل الناطقين بالضاد او من لهم تاثير عليهم جلوناها بعض الجلاء. وهناك ناحية اخرى لا تقل عنها اهمية خلدته بين طبقة خاصة، مقياس الخلود عندها الصناعة الفنية والاجادة فيها، ولقد كان لهذه الطبقة دولة في العهد القديم ولا زال لها بعض انصار فى العهد الجديد، كان

حظ شاعرنا عندها عظيما، وان المتصفح لديوانه لا يفوته شيء مما وضعوه من المحسنات وجعلوه المقياس الدقيق للعبقرية والنبوغ، فمن محسناته البيانية

الاستعارة

يغادر كل ملتفت اليه ولبته لثعلبه وجار
ترتهم فوق الاحيدب ترة كما ترثت فوق العروس الدراهم

الكناية

بدت قمرا وماست خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا

التمثيل

فان تفق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الغزال
بنو كعب وما اثرت فيهم يد لم يدمها الا السوار
بها من قطعها الم ونقص وفيها من جلالتها افتخار

ومن محسناته البديعية حسن المطلع

حسم الصلح ما اشتهته الاعادى واذاعته السن الحساد
المجد عوفي اذ عوفيت والكرم وزال عنك الى اعدائك الالم

براعة التخلص

نود عهم والبين فينا كانه قنا ابن ابى الهيجاء في قلب فيلق

براعة الطلب

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

التقسيم

ضاق الزمان ووجه الارض عن ملك ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن فى جذل والروم فى وجل والبر في شغل والبحر في خجل

مراعاة النظير

احبك يا شمس الزمان وبدره وان لامنى فيك السهى والفراقد

التمام

وخفوق قلب لورايت لهيبه ياجنتى لظننت فيه جهنما

المقابلة

ازورهم وسواد الليل يشفع لى وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

المدح الموجه

نهبت من الاعمار ما لوحويته لهنئت الدنيا بانك خالد

الجناس

يرد يدا عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد

وفى هذا البيت من المحسنات أيضا الطاعة والعصيان استنبطه أبو العلاء المعري من شعر شاعرنا عند نظره فيه، ولنقف الان عند هذا الحد. وليرجع من اراد ان يعرف مدى تفوق شاعرنا في الصناعة الفنية لديوانه، ففيه البديع المطرب من هذا النوع، ولنلاحظ ان شاعرنا لم يكن يعطى الصناعة الفنية كل ما يجب لها من العناية، ولم يكن يبذل في سبيلها كل ما تستحق من جهد الفكر وكد القريحة شان آخرين، فكل ما اتينا به وما هو منشور في ديوانه انما هو من عفو البديهة، وصفاء الحس ورقة الشعور، وهذا هو ما يجب ان يكون سر الاعجاب فيها عندنا وهذا ما يجعلها من مميزاته التى يستحق ان يخلد بها دون الكثير ممن شاركه فيها وكانت من اعظم الاسباب فى شهرتهم. فشاعرنا لثقته بنفسه فى اللغة وعلوم العربية جعل غايته فى شعره ابراز معانيه الشريفة وافكاره الدقيقة فى أي لفظ وبأي أسلوب تهيئا له، ولو لم يجر على مشهور القياس او ينطبق على وجوه البلاغة والاساليب الشعرية السهلة، ولذلك يوجد في كلامه كثير من الغرابة والتعقيد اللفظي وهذه ظاهرة ايضا جعلته شغلا لطبقة خاصة ابتلى بها او ابتليت به، فلنمر عليها الى ناحية اخرى تجلت فيها مقدرة شاعرنا الفنية وعبقريته الخالدة وهي ابداعه فيما سبقه اليه غيره، وليست هذه الناحية مما يزرى بشاعرنا او ينزله عن مقامه الذى تبواه رغم الاجيال والعصور، بل لا نكون مبالغين اذا عددناها من سر خلوده يقول ابو هلال العسكري: ليس لاحد من الناس القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم اذا اخذوها ان يكسوها الفاظا من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حلتها الاولى، ويزيدوا

في حسن تاليفها وجودة سبكها وكمال حليتها، فاذا فعلوا ذلك فهم احق بها ممن سبق اليها، ولو لا ان القائل يؤدى ما سمع لما كان فى استطاعته ان يقوله، ويقول اناتول فرنس : أي الرجال يستطيع ان يفخر بانه فكر فى امر لم يفكر فيه غيره، فالاديب يعلم علم اليقين ان الافكار ملك الناس باجمعهم، فلا يقدر احد ان يقول هذا الفكر لى، والاديب تعلم قيمته بالقالب الذى يفرغ فيه هذا الفكر فافراغ فكرة قديمة فى قالب حديث هو الفن كله، هذا ما يستطيع البشر ابداعه وانشاءه، ليس الفكر ملكا لمن يبدعه وانما هو ملك للذى يثبته فى اذهان الناس.

واليكم الان طرفا من هذا النوع

يقول محمد الوراق

اذا انت لم تسل اصطباراً وحسبة   سلوت على الايام مثل البهائم

ويقول ابو تمام

اتصبر للبلوى عزاء وحسبة   فتؤجر أم تسلو سلو البهائم

ويقول شاعرنا

وللواجد المحزون من زفراته   سكون عزاء او سكون لغوب

ويقول ابن عيينة

وقلت لاصحابى هى الشمس ضوؤها   قريب ولا كن فى تناولها بعد

ويقول الطرماح

هي الشمس لما ان تغيب ليلها   وغارت فما تبدو لعين نجومها
تراها عيون الناظرين اذا بدت   قريبا ولا يسطيعها من يرومها

ويقول العباس بن الاحنف

هي الشمس مسكنها في السما   فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود   ولن تستطيع اليك النزولا

ويقول شاعرنا معقبا على آثار الجميع

كانها الشمس يعيى كف قابضه   شعاعها ويراه الطرف مقتربا

وفى قبض الشعاع من معنى الشاعرية وعبث الغزل مالا يهتدى اليه الا شاعر مرهف الحس سليم الوجدان

ويقول ابن المعتز

انا على البعاد والتفرق   لنلتقى بالذكران لم نلتق

ويقول شاعرنا

قرب المزار ولا مزار وانما   يغدو الجنان فنلتقى ويروح

ويقول ابو تمام

شكوت الى الزمان نحول حالى   فارشدنى الى عبد الحميد

المتنبى كما أتصور عبقريته

المتنبى رجل من أولئك الرجال الافذاذ الذين منحوا ذكاء أو فو من الذكاء الاعتيادى، ونبوغاً سما بهم إلى ذروة العظمة والتفوق، لقد احدث فى الادب العربي ثروة كانت ولا زالت تثمر وتؤتى اكلها كل حين بين ايدى الباحثين فى ميادين الادب منذ القرن الرابع، وبعد مرور الف سنة لم تفقد قصائده ومقطعاته الخالدة تلك الروعة، ولم يضعف ذلك الجلال الفني فى اسلوبه الجذاب ومعانيه الرائقة، فحسن التناسق وصبغة التناسب فى شعره لم يذهب بمسحة رونقهما كر العصور ومر الازمان، ورجل كهذا له القدرة الكافية على البيان، ومن ابلغ المتصرفين فى الكلام، جدير بكل حفاوة وتقدير واعظام.

وعلاوة على ذلك فقد برع فى الوصف، يلمس الحقائق فتنقاد اليه فيصوغها سلسة واضحة. ويعبر عن اشياء فى داخل النفس عجز غيره من الادباء عن وصفها والتعبير عنها، نجد الشعراء يمدحون الشجاعة

ويقول شاعرنا

اذا سأل الانسان أيامه الغنى　　وكنت على بعد جعلنك موعدا

ويقول البحتري

لقد كان ذاك الجاش جاش مسالم　　على ان ذاك الزي زى محارب

ويقول شاعرنا

والذي يشهد الوغى ساكن القلب　　كأن القتال فيه ذمام

هذه بعض مثل سقناها ويطول بنا القول لو اردنا تحليلها وبيان مواضيع الجمال والبراعة فيها، فلنكتف الآن بهذا القدر، ونرجو الله فى الشفاء وسنوح الفرصة الملائمة فيكون حظ المتنبى عندنا اكثر من هذا، ولنردد الان معه وقد فصلنا بعض ما اجملنا

وما الدهر الا من رواة قصائدى　　اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

محمد الهاشمي الفيلالي

والاقدام والنصر والفتوحات، ونلفيه وحده يسمو بالمعانى الى الافق الاعلى فتظهر مميزاته وخصائصه فى النبوغ، فله دقة فى التعبير مع رونق البساطة وبهائها، ومن مجموع ما ذكرنا تتراءى اسرار عبقريته وتفوقه.

بيد اننا نود أن ننفذ الى اعماق نفسيته ونتلمس عبقريته اكثر مما سبق بمعونة حياته الاجتماعية وتراثه، فالباحث كما يجده ماثلا أمامه فى شعره وقصائده فى حلة العظمة والسؤدد، كذلك يتمثله بعد استقصاء ترجمته فى التاريخ، فشعره مرآة عصره، وعلى كلتا الحالتين فاننا نستعين بهما معا لعلنا نأتى بما يقارب الحقيقة ويحوم حول الصواب:

فحياته شاذة فى نوعها ملئت بالمغامرات والكفاح، فيه جرأة وتعاظم، يطمح الى العلى ويعمل له بغير توان ولا ملل بالرغم عن الظروف القاسية والعوامل المحيطة به، فيخط لذلك طرقا عديدة، ووسائل مختلفة، ويصمد للمصائب والملمات، ويصبر فى سبيل الغاية التى ينشدها، فيصل به حبه الجنوني للمجد وهو ابن سبع عشرة سنة الى ادعاء النبوة، ولم يجد غضاضة فى ذلك لضعف اعتقاده وقلة خبرته وبساطته الصبيانية، فيلاقى من اجل ذلك شدائد ومحنا، ولست من أولئك الذين ينفون عنه ادعاء النبوة، فقد اثبتها معاذ بن اسماعيل اللاذقي وهو معاصره، وابن الانباري فى طبقاته وابن خلكان وغيرهم ممن لم يعادوه فيتهموا بالتحامل عليه كما ادعى البعض. ولا تنافي بين هذه النزعات التى كانت تتوقد فى نفس المتنبى وبين مميزات عصره، فقد كانت المغامرات والانقلابات السياسية مضطرمة فى جوانب البلاد، ومن ناحية اخرى تكونت الشكوك المتولدة عن التفكير والمناقشة والمجادلة وكثرة الدعاوى الدينية واختلاف المذاهب، فاتيح للادباء مع الاضطراب السائد ان يغامروا لينالوا التربع

فى المناصب العالية، فالمتنبى فى هذا صورة لوسطه وبيئته، فلا غرواذا طلب المجد وهو يتنقل بين الملوك والامراء، بعد ما فشل فى طلبه عن طريق النبوة، فليس بقانع ببساطة العيش ولاراض بحياة دون نفوذ وسلطة، وهو ثائر على الحياة ومستخف بها مع بعد المنال. يغادر سيف الدولة مع ما هو محفوف به من الرفاهية والتمتع وبذخ العيش ما دام امله لا يحقق وبغيته يستحيل ادراكها، ويفر من كافور لما وجد فيه من نكث العهود والمكر والخداع، فنتقد فيه نزعة التشاؤم أكثر من ذى قبل ويحنق على أهل زمانه اذ لم يبوؤه ما يستحقه من رتب الرفعة، يصل الى هذا الموقف رجل كهذا يحمل بين جنبيه نفسا متعاظمة فى انفة وحفظ كرامة وشمم، ويظهر اثر ذالك فى ادبه وفلسفته، فهو دائما طماح الى العلى، فأنصت اليه يقول:

عش عزيزاً او مت وانت كريم　　　بين طعن القنا وخفق البنود

وبالرغم عن تشاؤمه الذى نشأ عما لاقاه من معاصريه من الحسد والاذاية، لم يتسرب الى اعماله اليأس قط، فقد غالب الحياة ونازع وكافح فيها بكل ما اوتي من العزم والقوة والصبر على الشدائد الى آخر لحظة من حياته. وصور عبقرية ابى الطيب التى تجلت لنا فى حياته وكمين نفسيته مطبوعة بطابع عصره ملائمة لما نلمح من روح شعره وثراته، فهو شاعر العبقرية وشاعر القوة والبأس والرجولة فى جميع ما طرق من المواضيع فى اطوار فقره وغناه، فالعز والمجد وكرم النفس وما شابه هذه الالفاظ جرت على لسانه فعبرت عن روحه وبواطن نفسه، ولا غرابة ان ينجب الشرق مثل هذا الشاعر اذا قيس بالوسط الذى تكون فيه وهو عصر الخلافة العباسية الحافل بالشعراء والادباء، فتأثر بثقافتهم ونشأ

في وقت ازدهر فيه العلم وترعرع الفن واستنارت جوانب الشرق بالآداب والفلسفة وسائر ضروب المعرفة فنبغ رجال فى كل الميادين، وكان الاسلام اذ ذاك يتبوأ درجة سامية فى الحضارة والتمدن. والمتنبى قد أخذ من هذا الميدان الخصب الحظ الاوفر، فثقف ثقافة عربية فحة، قرأ ادب العرب ولقى كثيرا من الادباء وجهابذة اللغة كالزجاج وابن السراج والاخفش وابن دريد، وتأثر فى اسلوبه وتناسق الفاظه بابى تمام والبحتري وابن الرومي وابى نواس وغيرهم فجاء شعره سحرا وبيانا، بيد ان جله وصف للعواطف والمحسوسات، ولم ينثن فى ذلك عن طريقة معاصريه، غير انه انفرد بوصف الحروب فكان رائعا ما اتى به من وصف المعارك والهزيمة والنصر وغير ذلك، مما يزيدنا يقينا بشجاعته واقدامه، فقد كان يهوى الحرب والقتال وشهد كثيرا من الوقائع مع سيف الدولة فى معارك الروم، فكان شاعر الوصف والحكمة يخلع عليهما لباسا شعريا جذابا يؤثر فى المشاعر والعقول.

وترفرف عبقرية المتنبى محلقة فى فضاء الفلسفة والحكمة فتظهر جلية فى بعض قطعه الشعرية التى جرت كحكم تعبر عن حقائق فى الكون البشري وعن الفلسفة الاجتماعية، فاتت آيات فى وحي العبقرية، اذ هي وليدة تجاربه وتخبطاته فى صميم الحياة مع ما تأثر به من الفلسفة اليونانية التى انتشرت فى عصره، بفضل مجهودات الفارابى الذى شرح كتب ارسطو وافلاطون وغيرهما من الفلاسفة، فقد اطرفنا بحكم لها من المتانة والتعمق ما جعل مدلولها قويا مدى العصور، ونكتفى بذكر بيتين من حكمه الرائعة لضيق المقام، قال:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   واخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ونستنتج مما تقدم ان عبقرية المتنبى في ثراته الخالد وليدة نفسيته ومثله العليا واخلاقه ونزعاته فى معترك الحياة، ومجموع هذا يكون عبقرية تحوطها العظمة بما ابتكرت في عالم الادب، واوجدت من الحكم والامثال السائرة ما لا يسع معه الا اجلال المتنبى، ولا نختم كلامنا في هذه العجالة دون ان نختلس نظرة اجمالية لنبحث عن مواطن الضعف فى شعره فننتقد عليه استعماله للوحشي من الالفاظ وعدم تناسب بعضها مع بعض فربما كان ذلك راجعا الى ضعف ذوقه للموسيقى. وطبيعي أن الشعر قائم من ناحية الفن بموسيقية الفاظه، وقد بين ذلك كثير من اقطاب الادب بالمقارنة والتحليل، فلعته ليست كلمة الشعراء الفنيين الذين شعروا وغنوا، ومن عيوبه ايضا وحدة الاسلوب الى غير ذلك من العيوب التى نجدها قليلة بالنسبة لجيد شعره وحيويته المتقدة، والانصاف يلجئنا ان نقول ان فى شعره محاسن تشفع لمساويه اذ كله صور لروحه الجبارة، وفنه فن قوة وانانية لا فن جمال ورقة ولين، وغني عن البيان ما له من عيون الشعر، من ذلك مرثيته لجدته الصادرة من صميم عواطفه، وقصيدته التى رثى فيها اخت سيف الدولة، فقد برهن فيها على نبله وشرف نفسه واعترافه بالجميل، الى غير ذلك مما يطول بنا استقصاؤه. وبالجملة فان الرجل الذى تحتفل به الاقطار العربية فى هذه السنة عبقري بكل ما فى الكلمة من معنى، وقد طبقت شهرته ارجاء العالم الاسلامي فى حياته وبعد مماته، وامتدت الى الآن، لما له من عظمة العبقرية، فكان أوفر طبقات شعراء عصره فى الفلسفة والعاطفة. وكان سر خلوده فى نبوغه الذى نضج واستكمل بعدم بلوغه الغاية. والا لاصبح بعد ذلك كرجل عادي

الاحتفال بالمتنبي بفاس

في يوم الخامس والعشرين من رمضان كان موعد الاحتفال بذكرى المتنبي الالفية بفاس. وقد كان يوما مشهودا، ومهرجانا بين الايام الادبية معدودا ظهرت فيه عاصمة المغرب العلمية بمظهرها اللائق بمكانتها التاريخية ومنزلتها الادبية، وتجلى فيه ايمان الشعب المغربي بالمشاريع النافعة التي يخدمها رجاله الابرار وشبابه الاطهار، وأي دليل على ذلك كهذا الاقبال العظيم والتلبية الكبيرة للنداء الذى رفعته اليه لجنة الاحتفال ورجالها العاملون.

نعم ما وصل صباح اليوم الموعود لاقامة الذكرى حتى اخذ مسرح السراجين يمتليء بجمهور الوافدين من علماء وادباء واعيان ووجهاء، ومختلف طبقات الامة من فاس وغيرها من مدن المغرب، مشاركة فى هذه المظاهرة الادبية التى هي الثانية من نوعها فى تاريخنا الادبي الحديث، واعرابا عما لهم من الاستعداد للسير وراء قادة الفكر وزعماء الابتكار. وكان القاصد لمحل الاحتفال يرى ازدحاما كبيرا في المنعرجات والمحلات المؤدية، فى غير جلبة ولا خصام، حتى اذا قارب الباب شاهد الاعلام المغربية خفاقة فى عليائها، والافراد المنظمين يفسحون المجال للداخلين مع الحزم فى تفتيش الاوراق، وعلى الابواب الداخلية اعضاء لجنة الاحتفال الاساتذة: محمد علال الفاسي، عبد العزيز ابن ادريس، الهاشمي الفيلالي، عبد الهادى الشرايبي، ابراهيم الكتانى،

فتنطفيء شعلة ذكائه ويضعف تفوقه ويضمحل. وقد كان ترجمان العروبة المدلي بحكمها، وكانت له شخصية لا تماثل غيرها من الشخصيات الادبية. فهو حي بشرائه ما دام في العروبة عرق ينبض.

احمد بن احسابى

يقتبلون مدعويهم بكل لطف ومجاملة، وفى واجهة المسرح الامامية وضعت منضدة مغطاة بزربية وطنية ووضع امامها العلم المغربي، وجلس إزاءها المحتفلون وعن يمينها الكتاب والشعراء، وعن يسارها اعيان الامة والرسميون منها. وحينما دق منتصف الساعة التاسعة تقدم الاخ علال، وافتتح الاحتفال بخطاب ارتجالي استغرق خمساً واربعين دقيقة تناول فيها الكلام على الغرض المقصود من الاجتماع وعرج على الاهتمام العظيم الذى كان لسلفنا بابى الطيب المتنبى ثم نحى باللائمة على المتظاهرين بالورع الذين ينتقدون مثل هذه الاحتفالات وتخلص الى الكلام عن الاسباب التى ابقت اسم المتنبى نابها الى اليوم، فبين أن الابداع والخروج عن المالوف هو اعظم الاسباب التى بوأت المتنبى منزلته العالمية، وهنالك قال: ان كل من يطلب البقاء، سواء كان من رجال الادب او رجال العلم او الصناعة، عليه ان يبتكر ويتطور، وان يوجد للناس جديدا غير مالوف، ويخلق لهم طريقا غير معروف، وان لا يكون قانعا بحال الجامدين من امتنا الذين ضاق فكرهم وقلت مداركهم فكان حظهم كحظ ذلك الاعمى الذى ابصر مرة فارا ثم عمي، فكان كلما وصف له شيء سأل هل هو مثل الفار؛ وافاض القول بالخصوص على الابتكار فى الادب ودعا الى التجديد فيه وختم بهذه العبارة الجامعة (أبدعوا تخلدوا) - ثم تعرض لذكر الافراد الذين اعتذروا عن الحضور والمشاركة. وفى جملتهم «الكتلة الوطنية فى شمال المغرب» ورئيس تحرير «المغرب الجديد» الاستاذ المكى الناصري، وحيا باسمه الجمهور المحتفل واعلن لهم (باسمه ايضا) ان المغرب الجديد مجلتهم الثقافية النازلة عند رغبتهم فى كل ما هو داخل فى دائرتها، ثم اعطى الكلمة للاديب

عبد المجيد ابن جلون فافتتح دور الشعراء بالقاء قصيدة ابى الطيب فى صباه: (كم قتيل كما قتلت شهيد) وبعده ايضا القى الاخ علال قصيدته (المتنبى شاعر الدهر). ثم اعطى الكلمة للاخ الحاج محمد الناصري فالقى قصيدته (تاج المتنبى) وقد نشرت فى العدد الفارط من المغرب الجديد. ثم القى الاديب عبد الكريم العراقي قصيدة الاخ عبد الرحمن العلوي، ثم اعتذر الرئيس عن بقية القصائد التى وردت على اللجنة وسرد ابياتا منها، والقى الاخ محمد القرى كلمته وقصيدته (مع المتنبى فى منام) وختم صف الشعراء بقصيدة ابى الطيب التى قالها فى الطور الثانى من حياته: (فديناك من ربع وان زدتنا كربا)، ثم افتتح صف المحاضرين بالقاء بحث الاخ عبد الله جنون (لقاه الاخ علال بالنيابة عنه) وموضوعه (المتنبى فى ديوانه) وقد نشر من بعد فى مجلة الرسالة وتلاه لاديب عبد الهادى الشرايبى فالقى موضوعه (المتنبى شاعر العصر) ثم الاديب احمد ابن حساين فناب عن الاديب سعيد حجى في موضوعه (ساعة مع المتنبى) ثم خلل الكلام بالقاء قصيدة ابى الطيب في طوره الثالث: (اقل فعالى لخ) ثم اعطيت الكلمة للاديب عبد العزيز ابن ادريس فالقى ملخصا من بحثه الكبير (المتنبى بين انصاره وخصومه) وتلاه الاستاذ الهاشمى الفيلالى وموضوعه (أسباب الخلود فى شعر المتنبى)، ثم الاستاذ الحاج محمد الناصري فألقى إلقاء بليغا كلمة (أنا وشاعر الشباب) ثم أنشدت قصيدة المتنبى فى طوره الرابع: (لهوى النفوس سريرة لا تعلم) ومن بعد تناول الاخ علال الكلام فالقى فصلين من بحثه الجامع عن (اثر المتنبى فى الادب العربي بالمغرب) وتلاه الاديب احمد ابن المليح وموضوعه (اخلاق المتنبى) ثم الاديب عبد الكريم غلاب وموضوعه (مطامح المتنبى)

جمعية الطالب المغربية

تحتفل بذكرى ابى الطيب

جمعية الطالب المغربية هي الهيئة الادبية الوحيدة التى تقوم فى شمال المغرب بنشر الثقافة بين المواطنين وتحبيب المعرفة اليهم بمختلف الوسائل من محاضرات واحتفالات عامة وخاصة، والحق أن تاريخها فى الميدان الثقافي تاريخ مجيد، وهي جديرة برعاية ادباء المغرب وتشجيع الغيورين من ابنائه، وفى طليعة ما قامت به هذه السنة حفلة ذكرى المتنبى التى نظمتها فى مساء يوم الجمعة 29 شوال 1345.

ثم الاديب ابن حساين وموضوعه (المتنبى كما أتصور عبقريته) وكان مسك الختام قصيدة ابى الطيب فى طوره الاخير: (حتام نحن نسارى النجم فى الظلم)، ومن بعده وقف الرئيس واعتذر عن الكلمات التى وصلت للجنة ولم تتمكن من القائها وسرد اسماء اصحابها، وبعد ما شكر الحاضرين على تلبيتهم للدعوة واجابتهم للنداء اعلن اختتام الاحتفال وانفض الجمع والسنة الحاضرين كلها ثناء على القائمين بالمشروع والمنظمين له. وقد كان لهذا اليوم المشهود صداه الكبير فى الاندية المهمة وفى الصحافة العربية والافرنجية بالشمال الافريقي وقالت عنه جريدة (البريد الفاسي) التى صدرت يوم السادس والعشرين من رمضان: ان هذا الحفل هو الثانى من نوعه (وتعنى بالاول يوم شوقى بفاس) الذى نجح نجاحا باهرا سواء من جهة الموضوعات المطروقة فيه، او من ناحية الاقبال الواقع عليه، او من جهة التنظيم الذي قلما يكون مثله فى جمع حاشد مثل هذا ثم نوهت باسماء الخطباء وعرجت على وصف الاحتفال على نمط ما ذكرناه.

شاهد عيان

التأم الجمع على الساعة الرابعة وكان ممثلا فيه كل طبقات الشعب ما بين خاصة وعامة، رغما عن اشتداد المطر وكثرة العواصف فى ذلك اليوم، وشارك فى الكلام بهذا الاحتفال حضرات الاساتذة: عبد الخالق الطريس، محمد المكى الناصري، محمد بن العباس القباج، محمد المختار السوسي، عبد المجيد الفاسي. اما الاولان فكانت مشاركتهما شخصية واما الثلاثة الباقون فالقي ما ارسلوه بالنيابة: القى بحث الاخ القباج حضرة الاستاذ محمد ابن الابار، والقى قصيدة الاخ السوسي الطالب المهدى بنونه، والقى قصيدة الاخ الفاسي الطالب عبد الله الخطيب، وقام بافتتاح الحفلة وتقديم خطبائها كاتب الجمعية الشاب الاديب محمد المرير، والجمهور الذى شارك فى الحفلة على اختلاف درجاته كان يستمع الخطب والقصائد بغاية الانتباه والاهتمام والحماس، ولا سيما عند ما ظهر ان لكل من الخطباء اتجاها خاصا في دراسة المتنبى قد يتعارض مع غيره، فادخل ذلك على الحفلة عنصرا جديدا من الحيوية والنشاط، وبالاسف أساء بعض الحاضرين فهم ما للحرية الفكرية من قيمة اساسية بين الباحثين، وأول الاختلاف الفكري فى هذا الميدان الادبي البحت بخلاف اساسي خارجي بين خطباء الحفلة. والمسألة كلها منحصرة اولا واخيرا فى تعارض الاتجاهات الادبية احيانا، وبالخصوص فيما يتعلق بالمتنبى منذ زمن قديم، وبالاجمال فما كادت تنتهى الذكرى حتى قامت حركة فكرية فى العاصمة التطوانية حول قيمة المتنبى واي الاتجاهات الادبية اوفق بالحقيقة واقرب الى الصواب، وانتقل المتنبى من ميدان الخاصة الى ميدان العامة، فزاد ذلك فى شهرته بين الجماهير المغربية، وهذه احدى فوائد الذكرى الالفية.

-- مخبر امين --

لا يعبد الا نفسه ولا يحب الا شخصه، وما تعودت الانسانية ان تعتبر «حكيما» الا من كان انساني العاطفة والغريزة، روحيا متواضعا غيريا يحب الناس محبة ابوة وعطف وايثار، ويحيا ويموت في سبيل خيرهم العام وسعادتهم الشاملة. وفقد المتنبي لهذه الصفات وحدها - فضلا عن فقده لغيرها كاف لاخراجه من حظيرة الحكماء، ويكفي أن تقارن حياته ومشاغله بحياة الحكماء الحقيقيين ومشاغلهم، ومصرعه الاخير بمصارعهم، لتدرك الفرق العظيم، بينه وبين أي حكيم: هـذا سقراط أب الحكمة القديمة - مثلا - مات شهيد الدفاع عن وجود الروح وخلودها، أي عن اقدس مبدأ يقوم عليه بناء الدين والاخلاق، بينما المتنبي مات شهيد الهجو الوضيع لشخصية وضيعة؛ فقد كان هجا ضبة بن يزيد العتبي بقصيدة خارجة عن حدود اللياقة والادب تبلغ نحو الاربعين بيتـا، وظل خال المهجو ينتظر فرصة مناسبة للانتقام، فلما كان المتنبي قافلا الى العراق مثقلا بالاموال والهدايا... من رحلته التجارية عند عضد الدولة خرج عليه فاتك الاسدي في عدة من اصحابه فقتله وابنه محسدا، وكان في ذلك مصرعه الاخير. ولا بأس أن اعرض هنا على الناشئين في الادب نموذجا من قصيدة المتنبي الهجوية ليقدروه من هذه الجهة قدره، وليس علي من حرج في ذكر الفاظه المخالفة للحشمة، وتعابيره المنافية للوقار، قال المتنبي يهجو ضبة:

وما عليك من العا ر أن أمك قحبه
وما يشق على الكلـب ان يكون ابن كلبه
ما ضرها من أتاها وانمـا ضـر صلبه
ولم ينـ... ولكن عجانهـا نـ... ز...
يا أطيب الناس نفسا وألين الناس ركبه

وأرخص الناس أما تبيع ألفا بحبه

كل الفعول سهام لمريم وهي جعبه

ما كنت إلا ذبابا نفتك عنا مذبه

وكنت تفخر تيها فصرت تضرط رهبه

وصدق أمير البيان (الامير شكيب ارسلان) عند ما علق على هذه القصيدة قائلا: «ان الناس حاولوا ان يعتذروا عن المتنبى فى ارتكابه هذه الصلعاء التى قتلته مادة ومعنى، فحاموا وما نزلوا، ووردوا ومـا نهلوا» وعندى ان من عاش عيشة المتنبى ومات ميتته وجاهد فى نفس السبيل التي جاهد فيها طيلة حياته لا يستحق مطلقا أن يعد فى صفوف الحكماء لاحقيقة ولا مجازا. اما ما كان يحشو به شعره من حكم منظومة قرأهـا فى كتب الحكمة، فلا أنكر أنه أجاد نظمها وانه ساعد بسبكه اللفظي البارع على إذاعتهـا بين المتأدبين، دون قصد منه لنشر الحكمة، ولا رمي الى مناصرة الحكماء، ولا يخفى على من له المام بتاريخ الحكمة فى الاسلام أن كثيرا من الآثار الحكمية والرسائل التهذيبية كان معروفا شائعا فى عصر المتنبى وكـان مكتوبا بلسان عربي مبين ما بين ترجمة ووضع، وليس عندي من شك فى أن المتنبى قرأ شيئا من هذه المصادر عند «الوراقين» فلصق بذهنه بعض ما فيها من حكم وامثال، وأخذ يزخرف بها قصائده ليلفت اليها الانظار، كما يزين التاجر دكانه بأساليب مغرية براقـة سعيا فى جلب الجمهور لشراء ما عنده من بضائع... وواضح أن حفظ شيء من الحكم وسبكها فى قالب شعري جميل لا يكفى للدخول فى زمرة الحكماء، لاسيما إذا لو حظت حياة المتنبى العملية، وكونها مناقضة لاكثر ما نظمه من حكم نظرية، ولو كانت هذه الحكم نتيجة تفكيره الشخصي وتجربته الخاصـة

لكان سلوكه مطابقا لها، متناسبا معها، ولا راح نفسه واراح الناس معه من تعب عظيم! فاسمع شيئا من هذه الحكم على لسان المتنبي:

وكل طريق أتاه الفتى   على قدر الرجل فيه الخطا
ومن جهلت نفسه قدره   رأى غيره منه ما لا يرى
وإنما يبلغ الانسان طاقته   ما كل ماشية بالرحل شملال
وأسرع مفعول فعلت تغيرا   تكلف شيء في طباعك ضده
وأتعب خلق الله من زاد همه   وقصر عما تشتهي النفس وجده
وهل ينفع الجيش الكثير التفافه   على غير منصور وغير معان
ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر
لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها   سرور محب أو مساءة مجرم
وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا   لمن بات في نعمائه يتقلب
ومراد النفوس أصغر من أن   تتعادى فيه وأن تتفانى

ثم طبق هذه الحكم على سلوكه في حياته نفسها تجده أشد الناس مخالفة لها، وأضعفهم إيمانا بها...

وأغرب من القول بان المتنبي «حكيم» دعوى أن له «شعرا قوميا» وأن له ديوانا يرضى «المثل الاعلى» للعروبة المعاصرة؛ وهاتان الدعويان من مخترعات النقد الادبي الجديد، وقد روج لهما بمناسبة الذكرى الالفية في المشرق والمغرب، وأنا أعجب من الاقدام على القول بهما كل العجب، ولقد بحثت ديوان المتنبي من أوله الى آخره عسى أن ألقى فيه مايصح أن يطلق عليه «شعر قومي» فما وجدت لذلك أثرا. بل وجدت أن المتنبي لم تكن عنده حتى العاطفة القومية نفسها، فالمنبت الذى ولد فيه لا ذكر له في ديوانه على طوله، والبلاد في رأيه كلها سواء، ووطنه

منها هو المكان الذي يلقى فيه الصيد سهلا، والقنص قريبا! ألم يمدح المتنبي نفسه قائلا:

غني عن الاوطان لا يستفزني   الى بلد سافرت عنه إياب
وما كنت لولا أنت إلا مهاجرا   له كل يوم بلدة وصحاب
ألفت ترحلي وجعلت أرضي   قتودي والغريري الجلالا
فما حاولت في أرض مقاما   ولا أزمعت عن ارض زوالا
على قلق كأن الريح تحتي   أوجهها جنوبا أو شمالا
وما بلد الانسان غير الموافق   ولا أهله الادنون غير الاصادق

ثم أليست العاطفة القومية تقتضي تعلقا قلبيا خاصا بوطن الاجداد والآباء، وولها به وحنينا اليه في السراء والضراء؟ وهذا ما لم يكن عند المتنبي منه قليل ولا كثير، بل لم يكن يحس بالحنين والعطف حتى نحو عشيرته الا قربين. ألا تسمعه يقول:

وقد كنت ادركت المنى غير أنني   يعيرني أهلي بادراكها وحدي

وكيف يعتبر «شاعرا قوميا» للعرب من كان داعية للاعاجم، مبشرا بسمو فكرهم وحكمهم وحضارتهم، ناشرا بأمداحه للنفوذ العجمي في جميع الاوساط التي يتصل بها؟ ألم يكن هؤلاء الاعاجم الذين مدحهم المتنبي خارجين على الخلافة العربية - في باطن الامر - عاملين على تقليص ظلها وتحطيم سلطانها، أخذا للثار وانتقاما للدم... وكيف يعتبر «شاعرا قوميا» للعرب من يمدح مولى متغلبا ككافور فيقول عنه:

وأي قبيل يستحقك قدره   معد بن عدنان فداك ويعرب
اذا منعت منك السياسة نفسها   فقف وقفة قدامه تتعلم

ويخاطب عضد الدولة فيقول له:

حمى اطراف فارس شمري   يحض على التباقى بالتفانى
ولولا كونكم في الناس كانوا   هراء كالكلام بلا معان
فان الناس والدنيا طريق   الى من ماله فى الناس ثان
لقد علمت نفسى القول فيهم   كتعليم الطراد بلاسنان

ثم يمدحه قائلا معلنا عن نفسه أنه «عبده»:

وقد رايت الملوك قاطبة   وسرت حتى رأيت مولاها
فانما الملك رب مملكة   قد أفعم الخافقين رياها
الناس كالعابدين آلهة   وعبده كالموحد الله

واذا كان قلبه فارسيا وعاطفته اعجمية، وعلاقته بعضد الدولة تماثل علاقة العبودية بالالوهية، فلن يخد عنا قوله:

ولكن «الفتى العربي» فيها   غريب الوجه واليد واللسان

وكيف يعتبر «شاعرا قوميا» للعرب من يهزأ بهم ويعيرهم، قائلا فى قصيدة يمدح بها ابن العميد:

من مبلغ الاعراب أنى بعدها   شاهدت رسطاليس والاسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافنى   من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه   متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما   رد الاله نفوسهم والاعصرا
أنا من جميع الناس أطيب منزلا   وأسر راحلة وأربح متجرا

ويمدح على الروذبارى الكاتب فيقول له:

فارسي له من المجد تاج   كان من جوهر على أبرواز
وبآبائك الكرام التأسى   والتسلى عمن مضى والتعازى
تركوا الارض بعد ما ذللوها   ومشت تحتهم بلا مهماز

وكيف يعتبر «شاعرا قوميا» للعرب من يصمهم بأنهم بعيدون عن سياسة الملك، غير أكفاء للحكم والسلطان؟ أي يصمهم بأشنع تهمة ألصقتها «الشعوبية» بهم فى القديم والحديث! ألم يقل المتنبى فى قصيدة يخاطب سيف الدولة:

وفيك اذا جنى الجانى أناة تظن كرامة وهى احتقار
وأخذ للحواضر والبوادى بضبط لم تعوده نـــزار

ألم يقل المتنبى فى قصيدة يخاطب دلير بن لشكروز:

فلا عدمت أرض العراقين فتنة دعتك إليها كاشف البأس والمحل
فإن تك من بعد القتال اتيتنا فقد هزم الاعداء ذكرك من قبل
أرادت كلاب ان تفوز بدولة لمن تركت رعي الشويهات والابل
وأهدت الينا غير قاصدة، به كريم السجايا يسبق القول بالفعل
فتمليك دلير وتعظيم قدره شهيد بوحدانية الله والعدل

فما ذا سجل المتنبى على قومه فى هذه القصيدة؟ لقد سماهم «اعداء» وسمى ثورتهم «فتنة»، وتمنى لارض العراق ان لا تغيب عنها الفتن حتى يأتي اليها والى العجم فيعطيه من المال ما يشاء مكافاة له على تخدير العرب وتخويفهم وتحقيرهم أمام أنفسهم وأمام الاعاجم، وسجل على الثائرين من العرب انهم لا يصلحون الا لرعي الابل والشاء، وانهم ليسوا لحكم انفسهم باكفاء، واضاف الى ادلة المتكلمين على وحدانية الله وعدله دليلا جديدا لا يستطيع أن يهتدى اليه الا امثال المتنبى من المتملقين: هو تمليك «دلير العجمي» على العرب، وتمكينه من رقابهم يفعل بها ما يشاء!. وأظن هذا القدر كافيا لتبيين ما للمتنبى من عاطفة قومية وشعر قومي مجيد... نعم وجدت فى ديوانه نزعة تتناقض مع العاطفة القومية

كل التناقض، بل هي من النزعات الهدامة المفرقة، وربما كانت أكبر سبب لتفريق كلمة العرب فى العصور الاسلامية، وتمزيق سلطتهم كل ممزق فى شرق الارض وغربها، وتلك هي نزعة التفرقة بين المضرية واليمنية، وتبادل العداوة والاهانة بين الاولى والثانية، واليك بعض ابيات قالها تشهد لهذه النزعة :

إن العطايا والرزايا والقنا　　حلفاء «طي» غوروا أو أنجدوا

كفى بأنك من «قحطان» في شرف　　وإن فخرت فكل من مواليكا

أبت لك ذمي «نخوة يمنية»　　ونفس بهافي مأزق أبداً ترمى

وقال مشيرا الى جدوده، ويعني بهم اليمنيين الذين ينتسب اليهم :

«وبهم فخر كل من نطق الضاد»　　وعوذ الجاني وغوث الطريد

وواضح أن هذه النزعة لا تشرف المتنبى ولا تجعله من أصحاب العواطف القومية السليمة كما حاول انصاره المعاصرون!

اما الادعاء بان ديوانه يرضى «المثل الاعلى» للشعوب العربية اليوم فيكفى لابطاله الملاحظات الآتية :

اولا ـ ان الشعوب العربية المعاصرة كلها منتفضة على استبداد الرؤساء، عاملة على ان يكون حكم الشعب لمصلحة الشعب قبل كل شيء، لان الاستبداد ـ زيادة على مخالفته لروح الاسلام الشورية الديموقراطية ـ نزل بهذه الشعوب الى حضيض الجهل والضعف والفاقة والبؤس والانحلال والاستعباد، والمتنبى ما نظم فى يوم من ايام حياته ولو قصيدة واحدة فى تحطيم الاستبداد والانتقاض على المستبدين، بل كان يناصر بشعره طبقة المتسلطين والمتغلبين كيفما كانوا، وكلما ارضوا انانيته أمعن فى الاغضاء عنهم، وأغرق فى الدعاية لهم، حتى انه ليرفعهم

الى مقام الرسالة احيانا، والى مرتبة الالوهية أحيانا، ولا يقول فيهم كلمة ترضى الحقيقة الا عند ما تسوء علاقته المادية بهم الى أقصى حد، ثم لا يقول كلمته تلك الا متكلفة مختصرة مبتورة، بحيث لا تجد فى ديوانه أية قطعة أو قصيدة يتغنى فيها بمحاسن العدالة ومساوى الظلم، أو منافع الشورى ومضار الاستبداد...

ثانيا ـ ان الشعوب العربية المعاصرة كلها طامحة الى التخلص من سيطرة «الاجانب» نهائيا، ولا يوجد اليوم شعب عربي يريد أن يحكمه شعب آخر ولو كان من السلالة العربية نفسها فضلا عن غيرها ـ مع اقتناع الشعوب العربية جمعاء بوجوب الوحدة الفكرية والثقافية والاقتصادية فيما بينها ـ والمتنبى كان داعية للدخلاء فى بلاد العرب، معضدا السلطة العجمية ضد قومه بلسانه وجنانه، معلنا انهم لم يتعودوا الحكم وليسوا اهلا الا لرعي الابل والشاء... وقد كان ينطق بالكلمة والكلمتين للانتقام الشخصي من بعض الاعاجم أو الدخلاء، ثم لا يلبث ان يبيع لسانه عقب ذلك مقابل دراهم معدودة لغيره من الاصدقاء الجدد الذين يتخذهم من نفس الطراز ونفس الطبقة، ولن تجد فى ديوانه قصيدة تمجد العروبة، أو تسجل مفاخر السلالة العربية، او تدفع العرب الى استرجاع سلطتهم البائدة

ثالثا ـ ان الشعوب العربية المعاصرة كلها متعلقة باهداب مثل روحية عليا قائمة على فناء الفرد فى سبيل المجموع، فالعربي الجدير بحمل هذا الاسم اليوم لا يغنيه كسب المال ونيل الجاه والهناء الشخصي عن التفكير فى مصير أمته بالليل والنهار، والتضحية فى سبيل سعادتها بكل مرتخص وغال، والسعادة الفردية المحدودة لم تبق لها قيمة حقيقية عند ذوى الشعور

الى مقام الرسالة احيانا، والى مرتبة الالوهية أحيانا، ولا يقول فيهم كلمة ترضى الحقيقة الا عند ما تسوء علاقته المادية بهم الى أقصى حد، ثم لا يقول كلمته تلك الا متكلفة مختصرة مبتورة، بحيث لا تجد فى ديوانه أية قطعة أو قصيدة يتغنى فيها بمحاسن العدالة ومساوى الظلم، أو منافع الشورى ومضار الاستبداد...

ثانيا - ان الشعوب العربية المعاصرة كلها طامحة الى التخلص من سيطرة الاجانب نهائيا، ولا يوجد اليوم شعب عربي يريد أن يحكمه شعب آخر ولو كان من السلالة العربية نفسها فضلا عن غيرها - مع اقتناع الشعوب العربية جمعاء بوجوب الوحدة الفكرية والثقافية والاقتصادية فيما بينها - والمتنبى كان داعية للدخلاء فى بلاد العرب، معضدا للسلطة العجمية ضد قومه بلسانه وجنانه، معلنا انهم لم يتعودوا الحكم وليسوا اهلا الا لرعي الابل والشاء... وقد كان ينطق بالكلمة والكلمتين للانتقام الشخصي من بعض الاعاجم أو الدخلاء، ثم لا يلبث ان يبيع لسانه عقب ذلك مقابل دراهم معدودة لغيره من الاصدقاء الجدد الذين يتخذهم من نفس الطراز ونفس الطبقة، ولن تجد فى ديوانه قصيدة تمجد العروبة، أو تسجل مفاخر السلالة العربية، او تدفع العرب الى استرجاع سلطتهم البائدة

ثالثا - ان الشعوب العربية المعاصرة كلها متعلقة باهداب مثل روحية عليا قائمة على فناء الفرد فى سبيل المجموع، فالعربي الجدير بحمل هذا الاسم اليوم لا يغنيه كسب المال ونيل الجاه والهناء الشخصي عن التفكير فى مصير أمته بالليل والنهار، والتضحية فى سبيل سعادتها بكل مرتخص وغال، والسعادة الفردية المحدودة لم تبق لها قيمة حقيقية عند ذوى الشعور

الصادق من ابناء العرب. والمتنبي قصر حياته وديوانه على خدمة انانيته المجردة، وارضاء شخصه المحدود، وعاش ومات مغرما بالمال مجنونا بالجاه دون ان يفكر في لحظة من لحظاته ان يخدم المجموعة التي ينتمي اليها في ناحية من النواحي، ولذلك سميته «شاعر الفردية والانانية»

ومجمل القول ان المتنبي شاعر ممتاز بين شعراء العربية، وعبقريته في صناعة الشعر ونظم الحكمة كافية لان تجعله اهلا للذكرى والخلود على ممر الاجيال. أما انه «حكيم» وان له «شعرا قوميا» وأنه يرضى «المثل الاعلى» للعروبة المعاصرة فلا يثبت امام النقد الجريء الصريح والبحث الموضوعي المحايد، وانا آسف ان تكون «العروبة المعاصرة» لا شاعر لها يمثل آمالها وآلامها تمثيلا صحيحا الى اليوم. وأملي عظيم في جيل العربية الناشيء: جيل المثل العليا والمبادىء السامية.

تطوان 8 ذي الحجة 1354 محمد المكي الناصري

تخفيض خاص للطلبة والاساتذة

مجموعة السنة الاولى من المغرب الجديد

120 موضوعا ـ 70 صورة

بـ 20 فرنكا او 10 بسيطات

خدمة للثقافة المغربية وتشجيعا لمحبي الاطلاع وعشاق المعرفة رات ادارة المجلة ان تباع مجموعة السنة الاولى بنفس قيمة الاشتراك السنوى: 12 بسيطة اسبانية او 25 فرنكا مغربية وان لا ترفع هذه القيمة كما هي العادة في المجلات والكتب

ونظرا للظروف الخاصة التي تحيط بالطلبة والاساتذة رات الادارة ان تضع لهم تخفيضا خصوصيا من هذه القيمة نفسها فالطالب او الاستاذ يمكنه الآن اقتناء مجموعة السنة الالى كاملة بـ 20 فرنكا مغربية او 10 بسيطات اسبانية لا غير

هلموا أيها المواطنون الى شراء مجموعة «المغرب الجديد» بهذا الثمن البسيط: إنها تحتوى على نحو مائة وعشرين موضوعا من أطرف الموضوعات واهمها، وتحتوى على نحو سبعين صورة من أبدع الصور وأندرها.

اطلبوا مجموعة «المغرب الجديد» من ادارة المجلة رأسا بتطوان صندوق البريد 145 او من باعة الصحف العربية في المدن المغربية.

اقراوا جريدة «الاخبار» الوحيدة

يصدر عددها الاول يوم الاحد 21 ذي الحجة 1354 ـ 15 مارس 1936

AÑO I NÚM. 9-10

EL MAGHREB EL YADID

«Nuevo Marruecos»

REVISTA MENSUAL DE CULTURA

Director- Mohamed Laarbi Benyel-lun
Precios de suscripción:
Extranjero: Un año 30 francos
Correspondencia: Apartado 145

TETUAN Imp. EL-MAHDIA febrero-marzo 1936